أمل الكردفاني

ممشى الولد والكلب

مسرد حكائي

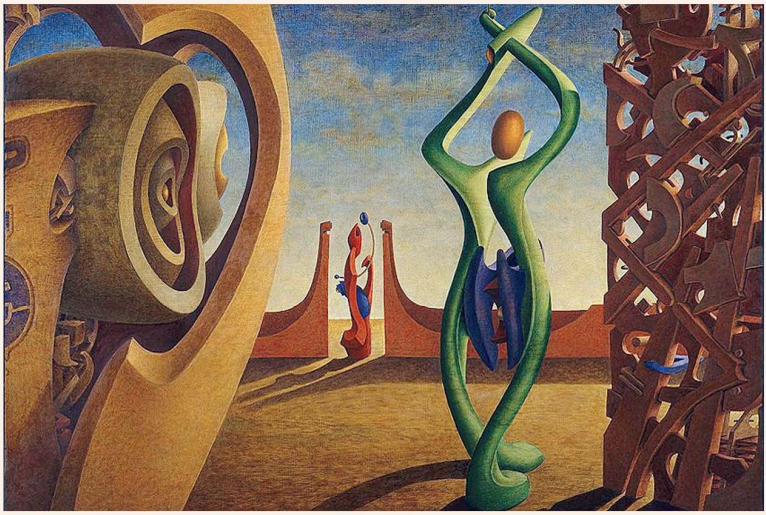

2024

2024

معشى الولد والكلب

الكتاب	ممشى الولد والكلب
الكاتب	أمل فايز حسن
تاريخ النشر	الطبعة الأولى 2024
التصميم	بكري خضر
رقم الإيداع	1536/2023
الترقيم الدولي	1 86164 869 3

الناشر
دار المصورات

للنشر والطباعة والتوزيع

الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:+249912294714
elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©
لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه, أو تخزينه كنسخة ألكترونية اونقله باي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

دار المصورات للنشر غير مسؤولة عن اراء المؤلف وأفكاره, وتعبر الآراء والافكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

أمل الكردفاني

معشى الولد والكلب

مسرد حكائي

«عملية الكتابة هي تهديم في حد ذاتها»

فوكو

مسارات فلسفية

ت: محمد ميلاد- ص ١٥

(٠)

الإنسان كائن مُغامر؛ وأكبر مغامراته أن يستمر في الحياة

***

(١)

ولكـــن إلى أيـــن؟ وهـــذه الأرض تحتـــي مســـتديرة العـــود الأبـــدي، وصبيـــة الضبـــاب يلعبـــون ويضحكـــون، وهـــم يمثلـــون مسرحيـــات ألفريـــد جـــاري: «أوبـــو أوبـــو أوبـــو».. والســـحاب يلـــف النمـــل المجنـــح ويلاحـــق الحـــصى الملســـاء فـــوق كتـــب الســـحرة.

«إن تكـــن عبثيـــة، فلتكـــن حتـــى النهايـــة، حيـــث يســـقط ظـــل الـــلا شيء أمـــام أعيننـــا الجافـــة».

يقـــول الولـــد الشـــقي وهـــو يجـــر كلبـــه مـــن ياقـــة

القميـص. تعـال وادخـل في لبـاسي السـفلي لتعـض الكرتـين النرجسـيتين.

لكـن الكلـب ينفـض ياقتـه وينبـح بالفـزع ويمـشي قربـه هادئـاً منكـس الـرأس ولسـانه يلحـس الأسـفلت الأزرق.

لـم يتوقـف صبيـة الضبـاب عـن الظهـور عـلى جانبـي الشـارع الضيـق وهـم يرقصـون الكرانـكا الخـضراء. ويصيـح الكلـب: «مـن علمكـم رقصـة الشـياطين هـذي» وعينـاه تتسـعان ولكنـه لا يـترك جـر لسـانه عـلى الأسـفلت الأزرق.

«سـينقطع الغنـاء لتعيـش وحيـداً» وتتمـوج بعدهـا كتـل الظـلام البنفسـجية أمـام بـصري.

#سيقتلونك

هاشتـ..ا..

وهـذه لغـة جديـدة عـلى الجامـوس الـبري. فيـترك القطيـع رعـي العشـب ويرفـع راسـه وخطمـه إلى السـماء متشـمماً.

«هذا هو القديم»

«تماسك»

«لا تسقط»

وصبي ضباب يمثل في الكولوسيوم واضعاً قناعاً من الثلج القديم.

«إنها إشاعات.. إشاعات فقط.. مجرد إشاعات يا حبيبتي.. وروما.. ليس بها مترو أنفاق حتى الآن.. منذ جستن الأول وهم يتداولون أمرهم».. ثم استبدلوا المترو بمدونة القانون ليعلنوا بداية نهايتهم.. بداية موتهم..

حينها يعود قطيع الجواميس البرية للرعي مرة أخرى. وتعبر بين أجسادهم الهزيلة ريح حارة من الجنوب.

إن كان عبثاً فليكن حتى الموت.. لأن حبك لم يكن مجرد أكذوبة إبريلية يا ذات الشعر الأحمر.. ويرى الكلب لهباً فوق قمة حصاة صغيرة ويرى انعكاس صورتي على لحائها الأصفر الأملس فيلتفت وينظر إلي. يظل يحدق في وجهي ويعود ليحدق في صورتي على الحصاة. يلعق لسانه بحركة دائرية محترفة ثم يجره

عـــلى الأســـفلت.

«كن بخير»

...

ويحكـــي الولـــد للكلـــب قصـــة رعـــب فيمـــوء كالقطـــط..

«يُدخِلـون الشـاليمو داخـل كـرة العـين ويمصـون سـائلها الذهبـي».

يعوي الكلب ويتلوى على بطنه.

لـو تزوجـتَ مـن شـابة صقليـة، لهـا تاريـخ عربيد كالشـهب، تعطيـك حنانـاً وتعطـي زنجيـاً جسـدها لتبلـغ كمـال متعـة الحيـاة. أليسـت خنفسـاء البحـر تعـبر بـين الأصـداف، وتمـد سـاقها المثـيرة لتتحسـس بـرودة ميـاه الشـاطئ. ثـم تقـول: «وَي وَي».

يضـم الكلـب فخذيـه وينحنـي للـوراء. متلفتـاً حولـه حتـى لا يـراه أحـد. فـيراه كل النـاس.

ويـدوس حـذاءُ الولـد فطـراً بريًّـاً فتفـوح رائحـة عفنـة.

«مثل مراوح الورق عند الأميرات».. تتدلى غُلالات حمراء من آبار النفط الصحراوية العابرة على جسد الصقلية ذات الشعر الأحمر.

إنها تعطي قبلة لكل من يسأل.

«قبلة في الفم؟»

يلتفت الكلب ويسأل بدهشة.

«قبلة في الشفتين الحمراوين»

ويرفع الولد قبعته ويخلخل شعره الفلفلي بأصابعه الصغيرة ثم يعيد القبعة إلى رأسه.

«وما المانع؟»

«لا ولكن..»

ويبدو الكلب حائراً ويجر لسانه على الأسفلت..

هناك من يعيشون داخل الصفر. وداخل الصفر عالم من اللبن الأبيض والجواميس السمينة والأعشاب الطويلة ذات النهايات الدبوسية الطرية. وحلوى بالونات حمراء وصفراء وزرقاء. ينزع الولد سبيبة من لحيته متألماً ويعض جانب لسانه فيصرخ ويبكي

ويلـوح بكفـه الأيـسر وكفـه الأيمـن يحيـط بفكـه مـن أسـفل.

إنهـا أوسـاخ.. اوسـاخ.. يجمعونهـا في المسـاء لتجمعهـا سـيارات النفايـات مـن أمـام المنـازل في الصبـاح. أو العكـس.

«ولنسمه ممشى الولد والكلب»

ويحـاول الكلـب الضحـك لكـن تشريـح خطمـه لا يسـاعده فيكتفـي بلحـس الـتراب.

إنهـا غابـة مـن ذكريـات. ولهـا وظيفـة مـا. ربمـا تكثيـف الوحشـة. ولكـن مـا وظيفـة الوحشـة؟ وجحـر النمـل المجنـح يغـرق في مـاء الحمَّـام.. رائحـة الصابـون الغريبـة تمـرق بسرعـة بـين الخنـادق الإبريـة المتشـعبة. ويهـرول العـدو مـن مواجهـة المـوت.

عـشر دقائـق هنـا وعـشر دقائـق هنـاك.. جنـود هنـا.. جنـود هنـاك.. أن كانـت عبثيـة فلتكـن حتـى النهايـة..

...

روكـو.. الولـد الأسـود ذو الشـعر الفلفـلي المـوزع

عـلى مسـاحات متباعـدة فـوق راسـه يـأكل المـوزة بقشرهـا.

«إنني نادراً ما أتغوط»

وبالونـات وجنتيـه تنتفـخ. ويلعـق الكلـب لسـانه بحركـة دائريـة محترفـة كعادتـه ويتخيـل أن راسـه خلـف مؤخـرة كلبـة مـن النـوع المهجـن بنطفـة كلـب بوليـسي.

«لماذا؟»

«لا أعـرف.. ربمـا لكـي تتملكنـي فأنـا كلـب والخضـوع عـادة الـكلاب».

ثـم يتابـع بأنفـه فراشـة تـدور عكـس دوران لسـانه. والولـد لا يهتـم بهـا بـل يواصـل أكل المـوز بقـشره.

«لتكون الأرض نظيفة».

لا تنخفـض الطاقـة أبـداً إلا أثنـاء حـزن عميـق. والحـزن وهـم كسـائر المشـاعر. ولكنـه حقيقـي التأثـير.

«لا تكن مخنثاً وتتابع الفراشات»

يخجل الكلب ويطأطئ رأسه مثل أولئك الذين يحبون الفلسفة.

الغابات هامدة رغم موجات عابرة ومتفرقة من زقزقة العصافير. وثلاثة أَسِرَّةٍ ملقاة قرب بحيرة. الأسرة الخشبية للأسماك الطائرة وعروسين. والكرسي الوحيد لسيد الغابة. وهناك هاتف محمول واحد فقط لا صاحب له. وفي الجانب الغربي معسكر لمليشيات متمردة تشرب وتسكر وتنام. لأن التمرد لم يعد يجدي. «لا شيء يجدي». يقول القائد المرابط تحت شجرة السرو ذات الزيت الطيار.

أنني أشتاق لصبية الضباب. أشتاق لعبثهم وضجيجهم. ولن يغير موتهم من ذلك شيئاً. فسينمون في خريف ما. أرسم إيموجي ضاحك بدمعة واحدة على الخد الأيسر. وتكبر البكتريا على الأرض وتصبح بأحجام ضخمة لأنها تعرضت للتهميش. من قال أن التمرد لا يجدي؟

يطلق جندي رصاصة على الآخر فينتبه القائد لوهلة ثم يعود للنوم مرة أخرى.

تغيب الفراشة ويشعر الكلب بالأسى. وينهض

الولـــد ليمـــشي فيتبعـــه الكلـــب ويقفـــز لينفـــض الـــتراب العالـــق بمؤخـــرة الولـــد العاريـــة.

«احترس»

يعود الكلب لجر لسانه على الأرض.

«إنها ليست عبثية يا روكو.. إنها ألم»

«فليكن»

ويشير إلى ثمرة جوافة صفراء في أعلى الشجرة

«انظر»

ينتابهمـــا شـــعور بالرغبـــة في الضحـــك والشـــجا في نفـــس الوقـــت.

«ستكسر ذراعك»

«أصمت»

ويعتلي أغصان الشجرة

«من هو سيد الغابة؟»

«أنت؟!»

« بل القرادة»

يسحق ثمرة الجوافة بيده الصغيرة

«دائماً القرادة»

...

تزحف القرادة فوق الكرسي، وتحاول أن تملأه بجسدها دون جدوى. مع ذلك ولهذا السبب تحديداً؛ ستظل سيدة الغابة.

ويتنصت قطيع الجواميس البرية أصوات الملاعق والشوك البرونزية وهي تتصادم مع صحون الخزف الصيني الفارغة. وتتحرك لأعلى وأسفل للأمام والخلف. على مائدة مستطيلة طويلة، أطول من مائدة العشاء الأخير، وتتخيل الجواميس الخبز المقدس ينمو بين الأصابع المتقيحة.

«المرأة تملأ حياتك دون أن تكون معك.. إنها معجزة بيولوجية..»

«عجباً ايها القائد»

يطلق القائد طلقتين أعلى رأسه وتفر الطيور من شجرة الزينة، فتسقط هدايا عيد الميلاد. ويسمع الكلب صوت الطلقة فينصب أذنيه

ويــئن لوهلــة والولــد منشــغل بإخــراج الــدود مــن ثمــرة الجوافــة.

«سأخلع قبعتي فالجو حار».

ينهــض الكلــب قافــزاً فيرفــع الولــد راســه عــن الجوافـــة:

«إنهم صبية الضباب!!!».

يبقــى القائــد وحيــداً وقــد قُـــتِلَ جميــع رجالــه، لقــد ســكروا وقتلــوا بعضهــم بعضــاً فجمــع قنانــي الخمــر ودفنهــا في الأرض وبنــى فوقهــا ســقيفة مــن بقايــا شــجرة الــسرو الوحيــدة في الغابــة.

«سأحافظ على كنزي الصغير»

وقهقــه مغتبطــاً وهــو يغِلــم، فتطايــر اللبــن الأبيض عــلى كرشــه المشــعرة وغــطَّ في نــوم عميــق، لــيرى أمــه تقــف وعــلى يدهــا ســوط مــن جلــد الجامــوس الــبري وهــي تلومــه بنظــرات حزينــة.

«سأصطاد السمك بديدان الطمي»

غير أن أمه تظل تحدق فيه بقسوة.

ويتمنى لو أنه كان يحلم.

«هل جربت الدخان؟»

يغمغم الولد ويرد الكلب نافياً.

«ولا انا جربت الدخان»

ثم ينهض ويهرول ليتبعه الكلب وهو يلعق لسانه بحركة دائرية ثم يجره على الأتربة فتلتصق به بقايا أوراق الأشجار.

وعلى البحيرة تتوزع ملابس العروس والعريس الداخلية فوق السريرين. ويبدو أن الإنسان يصطنع معاركه الخاسرة باستمرار لكي يشعر بالحياة ثم يندم عليها. فعلى ملاءة السرير ثلاث وردات جافة، حمراء وصفراء ووردية. وخاتمان من ذهب، على أحدهما ألماسة صغيرة جداً. شفافة ومعادية للفوضى. فليكن عبثاً.

لقد وجدهما القائد وقد شنقا نفسيهما فوق شجرة السرو فدفنهما بعيداً وظل يتذكر فخذي العروس السمراء اللامعة ولكنه يخشى وجه أمه اكثر.. لذلك شرب كثيراً تلك الليلة وشاركه القمر المستدير بكأسين ،أو ثلاث من غلالات الضوء الأبيض المزرق. كان كل شيء

يعصف بالقلب بلا رحمة.

«سنبحث عن آكل النمل ذو الأنف الطويل»

ذلك أن الأشقياء لا ينقرضون بسرعة. وتنزع الجدران صمتها وتصرخ عارية. جدران من الهواء والنار. كل شيء يغلي على مرجل الزمن. وسيصبح الولد عجوزاً يوماً ما، والكلب يموت عما قريب إن لم يكن الكون كرتونياً بأكمله، فالمسألة كلها إذاً عبث كوهم الوسواس القهري.

إن الأشياء مُعطى وهدف. ويمرِّغ آكل النمل خرطومه في الأتربة ليمتص نمل الغابة المجنح. وكذلك يحشره في بقايا ثمرة الجوافة فيشم رائحة أظافر الولد الملوثة فيعطس ويبتعد بسرعة.

«تقدستِ أيتها الأفخاذ اللامعة»

ويرسم شارة غريبة فوق جبهته ثم يجرع من الزجاجة ويضرط وترتخي أطرافه وينام. كل ذلك دفعة واحدة لأن أشهر السنة وأسابيع الأشهر وأيام الأسابيع وساعات الأيام تبددت كالعدالة. وحين يتدحرج ظرف الرصاصة

النحـــاسي الفـــارغ فـــوق الحـــصى وتلتهـــب ذروة الحصـــاة، يحـــدق الكلـــب في وجهـــي وفي صورتـــي عـــلى لحـــاء الحصـــاة الســـميك الأملـــس مـــرات ومرات بدهشـــة.

«كن بخير»

ويترنـــح ضـــوء العـــين الزجاجيـــة، ينســـحق الطـــين تحـــت الحـــذاء العســـكري. وتحـــت ظـــل القمـــر. تهجـــم ســـحابات عـــلى بعضهـــا وتلتحـــم في معركـــة ينتـــصر فيهـــا الـــكل ويقفـــز صرصـــار الليـــل مختبئـــاً داخـــل ثلـــم جـــذع التاريـــخ. أنفـــاس محبوســـة وأعين حزينـــة ومتوجســـة.

«من هناك؟»

«سأطلق النار»

ويخرج هيكل شاب نحيل، رافعاً يديه.

«لا أملك سلاحاً»

وعـــلى حافـــة ســـفح الجبـــل العـــالي، جلـــس الكلـــب والولـــد يراقبـــان النجـــوم وهمـــا لا يعلمـــان شـــيئاً عمـــا يـــدور أســـفلهما عـــلى بعـــد مئـــات الأمتـــار.

«انا جندي»

«تابع لأي مليشيا؟»

«وهل في أفريقيا من يحفظ اسم المليشيا التي يتبعها يا سيدي القائد»

«حسنٌ.. ومن كان عدوكم؟»

«لا أعرف.. لقد أجبروني على حمل السلاح»..

«أنت تكذب»

«بل أقول الحقيقة لا أملك ما أخشى عليه.. لقد قُتل جميع أفراد أسرتي»

يتسرب بين الرجلين حب خفي، وحزن خفي، وتوجس خفي، ومستقبل خفي. ويمتطي الخوف ظهر يعسوب مقدس تنحلُّ روحه الشفافة على كون أحدب الأنفاس. عشوائية هي حياة اليعاسيب التعيسة. وتقول الأسطورة أن قصة حب دامية بين يعسوب وفراشة أفضت إلى أن حرَّم اليعسوب على نفسه افتراس الفراشات. انتحرت الفراشة على لهب الحصى الصفراء حين تأكدت بأن سرعة حبيبها لا تسمح لهما بالوصال. وقالت أساطير أخرى

بـأن الفراشـة انتحـرت لأن اليعسـوب أحـب الحيـة، لذلـك تـراه يتبـع الثعابـين والأفاعـي في كل مـكان. ولكـن اليعسـوب بـريء من كل تلـك الإشـاعات. كان مجـرد حـشرة بائسـة. لا أكثـر ولا أقـل. وبمـا أنـه كذلـك فقـد نـال قداسـة التعسـاء؛ كعـازف كمـان بـلا جوقـة.

ويتـسرب ضـوء برتقـالي مـن النافـذة مهشـمة الزجـاج مرتميـاً عـلى طاولـة بهـا عـشرات مـن علـب مسـاحيق التجميـل. ومـرآة تعكـس أعـين اليعسـوب الكبـيرة ورأس الولـد والكلـب.

لا تسـأليني لمـاذا. إنـك تبحثـين عـن سـبب؛ اليـس كذلـك؟ وهـذا أكثـر صعوبـة مـن الصمـت. فلننـه كل هـذه الفـوضى. فليـس بالحـب وحـده يحيـا الإنسـان. ولنصعـد إلى شـجرة الـسرو ونشـنق نفسـينا يـا حبيبتـي. إننـي مسـتعد لأن أفعلهـا وحـدي. وهنـا حيـث تحفنـا الغابـات فإننا سـنُنسى كحـزن قديـم.

«سأمسـح المسـاحيق عـن وجهـي أولاً لأكـون صادقـة مـع المـوت كمـا كنـت صادقـة مـع الحيـاة والحـب».

«دعينـي أغسـل قدميـك الجميلتـين قبـل ذلـك كمـا فعـل المسـيح مـع تلاميـذه فالفـرق بـين الواقـع والخيـال هـو الجهـل».

«فلنتضرع إذاً»

«من تحبينه عليه أن يكتفي بعبادتك».

وتتبعثـر القصـص الصغـيرة الملونـة في ريـح الشـمال كجسـد الإلـه بـان كـو.

أولئـك الذيـن يتوصلـون إلى وحـدة الوجـود، لا يحسـدهم أحـد.

ويمـد الولـد يـده المرتعشـة فيمسـك بأحمـر شـفاه ويتأملـه، يشـمه ثـم يعيـده إلى مكانـه.

- كانت تعيش امرأة في هذا الكوخ المهجور.

يلعـق الكلـب لسـانه بالحركـة الدائريـة: تضـع مسـاحيق كثـيرة!!!..

- ليـس بالـضرورة أن تسـتعملها كلهـا.. يحـب الإنسـان امتـلاك خيـارات كثـيرة في حياتـه..

- لماذا؟

رفـع الولـد بـصره ورأى صورتـه والكلـب عـلى

المــرآة:

- ربما ليشعر بأنه حر.

ثــم غــادرا الكــوخ ليبحثــا عــن آخــر صبيــة الضبــاب.

وليــل الصيــف الحــار يرضــع مــن ثــدي شــمس غائبــة. مثــل شــاعر الحــب. فهــذه المنمنمــات تلتصــق بصخــرة ســوداء تلطمهــا امــواج المحيــط بعنــف فــلا تنزلــق عنهــا. تلمــع الصخــرة كلمــا غســلها ملــح المــاء، تعكــس بلــورات الملــح ضــوء الصحــو الكســول. ويلــف ســاحر ســمكة بخيــوط النحــاس. ويتلــوا تعاوذيــه الشــيطانية. فالإنســان إمــا هوائــي أو مائــي أو ترابــي أو نــاري. وتــدور المروحــة فــوق رأســه ببــطء فينطلــق دخــان البخــور راقصــاً وحامــلاً الكائنــات الروحيــة عــلى ظهــره. «لكــن.. لا شيء يحــدث يــا امــرأة الإنســان» فهنــا حيث تحــط النبــوة -ويشــير إلى قلبــه- ينمحي الخــير والــشر، لأن الرجــل يــترك أبــاه وأمــه ليلتصق بامرأتــه. ويســمي ذلــك زواجــاً. ويــرى ذلك حســن. فتتدحــرج ثمــرة الجوافــة المحشــوة بالديــدان تحــت أقدامهمــا العاريــة.

«سأصطاد السمك بديدان الطمي». ويتأملها البربريان بتعجب. وخلف الأكمة يختبئ الكلب الشقي الذي سيموت قريباً كقربان للعبث.

تحمر جمرة الطُّباق.

«أين وجدتها؟»

«جندي ميت»

ينهض القائد ويحفر الأرض ليخرج زجاجة خمر.

«هاك إذاً»

ففي عالم الأرواح لا شيء بلا مقابل.

«هناك إذاً مسرحية أخرى تكتب هناك».

وتمثلها فرقة إسخيلوس من صبية الضباب المقنعين. حيث كانت المرأة ترعى الأبقار في ذلك الكون المغاير. لذلك كان الشباب يخشون الزواج من راعية.

وينحرف الممشى نحو قرية الألف حانة. حيث يقطن كل السكان داخل حاناتهم. وتخلو الطرقات من المارة. أما في المساء فتتحرك

عربات الحمير محملة ببراميل الخمر والنبيذ لتتوزع على القرى المجاورة تقودها فتيات صغيرات بدينات من كثرة أكل لحم الخنزير وعلى رؤوسهن بواريك الشعر الأحمر ليقلدن الصقلية.

وتابعهن الولد والكلب بنظرات خالية من المعنى. وأدركا أن المغامرة الإنسانية تنتهي عند الخمر والنساء، فلهث الكلب ولعق لسانه بالحركة الدائرية المحترفة، أما الولد فقد رفع قدمه اليسرى وتبول على جدران معبد مهجور. ثم غادرا بأسرع ما يكون، لترتفع إلى السماء فقاعات الصابون، ورائحته المثيرة للغثيان حين تمتزج برائحة التراب ورائحة الشمس الصيفية. ويمتد الممشى الرملي وعلى جانبيه أكوام من نفايات الحرب: الدبابات ذات الأنف المكسور، والمدرعات الضاحكة، والخوَذ المتبوِّلة، وحديد ينبت كعشبة الشيطان في كل مكان. وتحت ركام الحديد يحفر النمل المجنح أخاديده العميقة فتتكوم مخاريط التراب كأهرامات البشر القدماء. وفي الداخل يتناقلون أخباراً لا قيمة لها سوى البحث عن الطعام. متجنبة الخروج إلى

السـماء حـين تمطـر نـترات الأمونيـا.

«أنظر»

ويشـير الولـد إلى ورقـة كبـيرة. ويقفـز الكلـب ليثبتهـا بمقدمتيـه.

«هل ترى الصور؟»

ويمضيـان يومـاً سـعيداً في مشـاهدة الصـور عـلى الصحيفـة الصفـراء.

«يصنع البشر أشياء عجيبة»

يقـول أحدهمـا. وينبهـر الآخـر. ويتشـكل مثلـث مـن الطيـور فـوق راسـيهما عابـراً بسرعـة دون أن يريـاه.

يرفـع صبيـة الضبـاب أذرعهـم ويوسـعون مـا بـين أقدامهـم ويُرعشـون أكفهـم ويقفـزون عـلى ذلـك الوضـع يمينـا ويسـارا، ثـم يـدورون حـول أنفسـهم وتصيـح جـدران الهـواء «كرانـكا.. كرانـكا أوب زيـلي.. كرانـكا أوب زيـلي».. وتضحـك الفتـاة الصقليـة ذات الشـعر الأحمـر وهـي تمسـك بطنهـا لتحجـز إنسـياب دمائهـا الزرقـاء مـن ثقـب السُّرة. ومـا يمكـن أن يطلـق عليـه أيـض الأحاسـيس بـلا

تـــردد، فـــإن كانـــت عبثيـــة فلتكـــن كذلـــك، لتنبعـــث عفونـــة الإنوجـــاد القـــسري مـــن كل مســـامات بـــين الخلايـــا.

«تعبت وتعب لساني»

لكنـــه يواصـــل طاعـــة طبيعتـــه، فيلعـــق الأرض بمســـاميرها وحديدهـــا وأظـــرف الطلقـــات النحاســـية الفارغـــة ونـــترات الأمونيـــا. فتلســـعه ويـــدور حـــول نفســـه كالمجنـــون.

«هوو.. توقف..»

وتســـتعر الحركـــة الأولى مـــن ســـيمفونية شـــهرزاد. وتنتفـــخ أوداج النافخـــين عـــلى الأبـــواق. ويســـير كورســـاكوف داخـــل نهـــر نيفـــا حتـــى يبلـــغ المـــاء كتفيـــه ثـــم يختفـــي رأســـه تحـــت النهـــر تمامـــاً. يرقـــص الـــشرق الأقـــصى بالأوســـط وبمـــوت كلـــب إفريقـــي فـــوق لغـــم. وفي الغـــرب يجلـــس الرجـــل ذو القبعـــة المرتفعـــة والشـــارب المعقـــوف والابتســـامة الصفـــراء ورســـغ يـــده اليمنـــى فـــوق ركبتـــه اليسرى المعقوفـــة فـــوق الركبـــة اليمنـــى والغليـــون عـــلى كـــف يـــده اليـــسرى.

«ستموتون»

تبرق عيناه.

ويختنق الكلب من ربطة عنقه فيحاول نزعها بلا أمل في النجاة.

ويهرول الجندي والقائد تحت ظلال الأشجار حاملين قناني الخمر، وهما يأملان أن يفلتا من الموت وأن يتزوجا من ذوات البواريك الحمراء ويقتنيا جواميس برية وينجبا ولداً ليرعى مع كلبه أحلاماً ماتت في صيف ما.

...

هناك صيف في كل مكان، داخل الأحذية وبين أسنان المشط، وتحت الإبطين، وفي غمامة الذاكرة، وله رائحة نمل محترق. ليس النمل المجنح فقط، بل حتى النمل الذي يتعشى تحت الجلد. أو ذلك المتخفي داخل الأرواح المتململة. ويحاول الكلب طرده من لسانه الطويل، وهو يعود إلى الخلف، لكي لا يتبع سيده الصغير. والسيد الصغير لم يعرف بعد معاني الارتباط بين الموت والقُبلة. لذلك فالمسير طويل، إذ

يطلق الجندي الأسير النار على القائد، في وسط جبهته تماماً، غير أن القائد لا يموت، بل يعض قضيب الأسير حتى يقطعه فيموت كلاهما ببطء كدوران المجرات. يصبح الكون فارغاً منهما، ومن العروسين، ومن اليعاسيب المراهقة، وثمرة الجوافة ذات الديدان، والحب والفرح، وتغمره كآبة سيارة عطبت بسائقها وسط الطريق الخلوي، لتظلل ما تحت الرمل من عظايات عطشى شاحبة. إنه روتين الحياة الباهظ، والسخيف أكثر من رجل يتسول قلب امرأة.

»ليس كل العالم روكو«

ويبدأ الكلب في التحول لبشري. غير أن الولد لا يدرك ذلك.

ويحاول الكلب التخلص من بشرية داهمت كينونته على حين غرة.

»بل كل العالم روكو«

ولكن هيهات.

ففي وادي البكاء، تنشق الأرض عن أخدود الحقد من حروف اللغة، وتلك ميزة بشرية

مُحتكـــرة.

»فليكن.. ليس كل العالم روكو«

فيردد الولد:

»ليس كل العالم روكو«

وتنقبـض أذنـا الكلـب. مقـرراً مفارقـة صاحبـه من طريـق المجهـول. ولا يلاحـظ الولـد اختفـاء الكلـب إلا في مسـاء يحبـل الوحشـة في أعمـاق الجبـال.

إن القمـاش الأبيـض يتمـزق ثـم تنسـل خيـوط نسـيجه شـيئاً فشـيئاً ليخـسر الحكمـة. وهكـذا يقبـع الولـد وحيـداً فـوق التـل، وعينـاه عـلى امتـداد الممـشى الأزلي السرمـدي.

»إنـك لـم تفكـر حتـى في أن تطلـق عـليَّ اسـماً يـا روكـو«

ويسـتمر صمـت حيرتـه مسـتلقياً عـلى شـفق الغـروب.

كانـت كتـل السـواد تنتـشر، الأعشـاب والتـلال والأشـواك والفطـر العفـن وأسِّرة العاشـقَين والقرادة فـوق كرسـيها، وجثـة القائـد والجنـدي الأسـير،

والصخـــور العابـــرة وأشـــجار الصبـــار الشـــوكية، ورمـــاد شـــجرة الـــسرو، وكل الغطـــاء النباتـــي، وصبيـــة الضبـــاب، وقبـــاب الأضرحـــة فـــوق الســـماء، والكتـــاب الأســـود، ودم الشـــيطان وصـــوت الطيـــور الآيبـــة إلى أعشاشـــها لتغفـــوا تحـــت أجنحتهـــا.

»سأطلق عليك اسماً«.

»ولكن ماذا؟«

»إنك لن تعود على أي حال«

ويقفـــز مـــن التـــل، ليمـــضي في ممشـــاه. وتنحنـــي امـــرأة داخـــل البـــئر، ثـــم تســـقط. هـــذا ســـبيلها الوحيـــد إلى الانتحـــار، لكنهـــا لا تمـــوت، بـــل تمـــوت ببـــطء وبألـــم شـــديد. كان هـــذا قبـــل آلاف الســـنين، إذ لا فـــرق في موضوعـــات التاريـــخ. ويكفـــي أن دولـــوز لـــم يكـــن وحـــده مـــن اكتشـــف ذلـــك. فســـعف النخـــل يحـــاول الطـــيران منـــذ الأزل، ونهايـــات النظريـــات تشـــهد عـــلى ابتـــذال الضحـــك. وابتـــذال النـــواح مـــن وجـــه آخـــر. ومضـــارب الصحـــراء، وروث المـــواشي، والمقابلـــة الوظيفيـــة، وفائـــض القيمـــة، ومضاربـــات البورصـــة.. الـــخ. إن الأصـــوات تنفصـــل عـــن حناجرهـــا، ولكنهـــا تتصـــل بجوفهـــم

وخصيِّهم، وضفائر البنات في عمر الرابعة عشر، وأخبار الصحف اليومية، وربطات العنق. وسوق الجنس، والفنادق من درجة السبعة نجوم. وعطاءات العقود الإدارية، والرشاوي، وغسيل الأموال، وديموقراطية عث الفِراش.

»فلتكن بخ..«

»لا«

ترتجف الصلصالة فوق الدوار الخشبي كنهدي أنثى. واليدان تمسَّهما برفق. يدان ضخمتان أكبر من الكون كله. وتتنهد الشمس، ويغوص القمر بين فخذيها، ويتناثر حَبُّ الرمان على أهوار العراق. ومعه ألمٌ مُر.

يقف الولد وينصت للكون الصامت. يسمع هسيس النجوم البعيدة.

»لم يبقَ لي شيء«

يمتد المشى أمامه، يصعد ويهبط، ينعطف وينحرف وينكسر، ينخسف وينبعث.

»لم يبقَ لي شيء«..

يلتفــت خلفــه.. لا شيء، ثــم يعــود ليحــدق أمامــه، لا شيء.. ينظــر يمينــه.. لا شيء.. يســاره.. لا شيء.. تــزداد دقــات قلبــه وتتســارع انفاســه.. لا شيء.. لا شيء.. لا شيء.. ويــصرخ:

»ماماااااااا«

(٢)

مزعجــة جــداً، أصــوات الملاعــق والشــوك وهــي تصطــدم ببعضهــا وتنقــر عــلى أطبــاق الخــزف الصينــي. «يجــب أن تكونــوا جاديــن أكثــر مــن ذلــك». وينظــر الكهــل إلى الولــد: «ونحــن نــأكل الآن؟ هــل تعتقــد أن هــذا هــزل؟» ويصمــت الجميــع لوهلــة، وهــي وهلــة كافيــة جــداً لمنــاورة سريعــة.

وتهتاج الجماهير، هكذا هم دائماً ينتظرون الضربة القاضية وكأنما يوجهونها بأيديهم. ويستغرق العشب المحترق شساعة البراري المأزومة باليأس، وتهرول الجياد الحرة مبتعدة قدر المستطاع عن دائرة الحضور الضيقة. لقد غادرت الجواميس البرية، وسقطت أجنحة النمل، ونمت الرصاصات في سهول النسيان. «هذا هو تاريخي». تاريخ أول ارتشاف للأصابع بالأصابع. تاريخ أول نظرة حب، وأول قبلة، وأول انكسار أمام الحقيقة. هنا؛ حيث يبدأ الإنسان في النمو بالحزن.

»وداعاً«

وداعاً لذلك الولد

ومرحبا بعربات الحمير وهي تحمل براميل الخمر البلدي، منذ أن تعلم الإنسان تقطير الفواكه بعد تخمير عصيرها. ولم يكن ذلك بالبعيد. تقول كاميليا بأنها لا تفكر في شيء. وتقسم على ذلك. ثم توزع الحيرة مع الكؤوس على زبائنها. «لا أحد لا يفكر في شيء». كيف يكون ذلك؟ فيلتقي بالخائن. يراه من بعيد وهو

يقــود رتــلاً مــن الجــراء القبيحــة مثلــه، فيقــف ويتأملــه بصمــت. تضــاء مصابيــح الــدم في العــروق لكــي تتلقــي وترســل بريدهــا الملــوث، لكــي تحــدث ذلــك التنبيــه الى تشــعبات مــن مفترقــات الــدروب. لكــي توتــر الحكومــات العالميــة، لكــي تشــتعل الحــروب، لكــي يمــوت الــكلاب وأشــباه الــكلاب، ويجتمــع المدونــون لصياغــة مســارات أخــرى للحقيقــة الجديــدة، لكــي تكــون تاريخــاً جديــداً. فتنبــت الأقحوانــات الحمــراء مــن جديــد، ومعهــا السوســن الأصفــر والبنفســج وعبــاد الشــمس وكافــة أنــواع المخــدرات. وتمتــد أصابعهــا لتقطــف واحــدة. تشــمها وتغمــض عينيهــا كأوَّل كذبــات المراهقــات. ويصدقهــا هــو كأول حماقــات المراهقين. وينبــح الخائــن مــن بعيــد «ليــس للــورود رحيــق». وتلتفــت زوجتــه الكلبــة ناحيــة الحبيبــين تاركــة جــرواً يعبــث تحــت أثدائهــا القبيحــة. تلهــث ثــم تتبــع الخائــن بصمــت.

ينظــر روكــو إلى الفتــاة ويــرى ممــشىً جديــداً يخــرج مــن شــفتيها ســاقطاً تحــت قدميهــا عابــراً الجحيــم. تمتــد يــده وتمســك بفكهــا ورقبتهــا. يســمرها ويــأكل نهديهــا. ثــم يمــزق

تنورتهـــا القصـــيرة مُفســـحاً مـــن القنـــوط بعـــض الأمـــل. «كيـــف لا تفكـــر أمـــك؟ هـــذا محـــال؟ لا أحـــد لا يفكـــر؟». يتركهـــا مقرفصـــة عـــلى الأرض وهـــي تضـــم فخذيهـــا بذراعيهـــا وهـــي تبكـــي عـــلى خيـــط دم أزرق يحلـــق فـــوق الســـماء. ويرفـــع الخائـــن قدمـــه اليمنـــى ويتبـــول عـــلى شـــجرة شـــاحبة ليضـــع علامـــة عـــلى نطـــاق معيشـــته البائســـة. كل شيء لـــه علامـــة حاســـمة تُقســـم لمصلحتـــه دائمـــاً. يحدقـــان في بعضهمـــا بصمـــت:

«رأيت كل شيء»

«ليس كل العالم روكو.. أليس كذلك؟»

ثم يمضي كل واحد منهما في طريقه.

...

يا أرقاء الحياة..

هلموا..

فهنا تحت اقدام أغسطس

مات القرد مات..

كان يرقص..

والمارة يرمون النقود..

ويضحكون..

ثم

يغادرون..

كان يصيح:

هلموا يا أحفاد قيصر..

ويرتمي ممثلاً دور الميت فتضحك الجماهير.

ويلخص القرد معيار الحضارات الأوحد ويهمس للولد. وينظر الولد للاحتفال بروما على الأرض الإفريقية. حيث يقف البيض ويتأملون السود بمرح.

إن حضارة البشر تقبع بين المطبخ والمرحاض.

ويشتري البِيض مناديل الورق بكثرة، لأن السود والمسلمين تأخروا جداً وهم يبحثون عن الماء من أجل الطهارة.

يقفز القرد فوق كتف الولد، ويحاول الولد أن يتحمل ثقل عضلاته القوية. وطعنات شعره الرمادي. كان السيئ دائماً سبباً للإيجابي.

ويبـــدو أن الكلـــب الخائـــن قـــد أصيـــب بالغـــيرة فصـــاح:

- الحتميـــة البيولوجيـــة ســـتنتصر في كل الأحـــوال أيهـــا القـــرد المتحذلـــق.

لكن القرد لا يأبه ويقول:

- توقف عن البكاء..

وعـــلى مشـــارف الأدغـــال، تهـــرب الجواميـــس البريـــة، ومعهـــا كل العواشـــب، وقليـــل مـــن المفترســـات. وتغلـــق الجســـور الترابيـــة، وتنتـــشر المدرعـــات العســـكرية.

تحطـــم الحيوانـــات الأسرة، ويهشـــمون الكـــرسي، ويقتلـــون القـــرادة.. وتجلـــس قـــرادة أخـــرى فـــوق الكـــرسي وتبـــدأ في عصرنـــة الغابـــة، بتجريفهـــا أسرع مـــن تجريـــف الطبيعـــة لهـــا. وتتعلـــم الجواميـــس البريـــة الســـودوكو لتقـــضي فـــترة نهايـــة خدمتهـــا في اللعـــب. يُلقـــي الولـــد بالشـــوكة والســـكين، ويغـــادر مائـــدة الطعـــام بغضـــب. إنـــه منـــاور بـــارع، فعندمـــا يرغـــب الإنســـان في البحـــث عـــن حريتـــه، ســـيفعل ذلـــك، غـــير أن كل النهايـــات التاريخيـــة كانـــت

دائماً رفع الراية البيضاء بعد أن نرى النقطة الحمراء في خرائط الجي بي إس على الهاتف المحمول. ويرفع العمال على أكتافهم الأحمال الثقيلة، الحجارة وجوالات الإسمنت والفول والسمسم، والثلاجات والبوتاجازات وحقائب السفر، وكل الأكاذيب التي تحيط بالرغبة في الانعتاق والانفلات دون جدوى. وإذا كانت عبثية.. فلتكن كذلك. وليكن كل سفر الخروج خروجاً للعالم. تمرداً لم يكن بالإمكان تجنبه، لأنه هكذا يقول التاريخ: هو ذا يأمركم أن تعلِّموا آذانكم بوسم واحد، لأطفالكم وكباركم ونسائكم ورجالكم وحيواناتكم، وكل حي يتنفس. أما الجماد مما لا نفَس فيه، فاحرقوه، إلا القليل من الطعام والشراب. كذلك يأمركم، وكذلك تخرجون من بين الأخاديد على نهر نيفا، ولا تأكلوا ولا تشربوا قبل صباح كامل.

ورفعوا كل شيء على ظهورهم، وهم يتبعون سحب الرب، وقلوبهم ترتجف مثل قلوب الحمام. وعلى الطرف الآخر من النهر، جمعت الملائكة أجنحتها وجثت تترقب وصول الولد والقرد.

كان يدخـن بكثـرة.. وظلـوا يفتشـون عـن مـكان لدفنـه لسـاعات طويلـة، حتـى وجـدوا حيـزاً في مصنـع الإسـمنت. وتوافـد العمـال حـول جثتـه، وقـبروه وأعينهـم تضحـك. أمـا السـيد المديـر فـكان يجتمـع مـع مجلـس الإدارة ليعـرض السياسـات الجديـدة. وخاصـة مطالبـة الحكومـة بضمانـات بنكيـة حقيقيـة.

»إنهم لصوص«

»مجموعة لصوص«

تحولـت كل المصانـع إلى مقابر. وبعضهـا إلى مدارس كونغفـو. وفي كل الأحـوال فـإن الأم لا زالـت تـصر عـلى أنـه الأب البيولوجـي وليـس القـرد. واللاعـب الرئيـسي في تحديـد مصـير الثقـوب السـوداء في خرقـة المشـاعر الباليـة.

»لا تكرهه هكذا«

ولكنـه ظـل يقبـع كحاشـية سـفلية؛ متعلقـة وغـير متصلـة.

»لقـد كـبرتَ الأن وصرتَ شـاباً وأصبـح عليـك أن تغـادر ممـشى الغابـة الضيـق.. إن طاقـة الإنسـان

تتبـدد كالعطـر».

وجـه الأم كان جميـلاً، شـفتاها مشـققة ولسـانها محتشـد بالدمامـل، وداخـل محجرهـا الأيـسر كـرة حديديـة سـوداء. وتخيلهـا والقـرد يضغـط عـلى صدرهـا ويـضرب فرجهـا الجـاف بحـراب النحـس النهـاري. يـداه كيـد الجـزار، وانفـه كأنـف الكاهن، وأذنـاه كأذنـي الجـار المحتـال، وانحنـاءة ظهـره الصغـيرة تؤكـد وجـود جينـات مـن خيـاط القريـة المجـاورة أمـا عقلـه فعقليـة المديـر. كلهـم كأنهـم هـو مـا عـدا الأب الموثـق بـأوراق الحكومـة. وهـذا هـو الموضـع الطبيعـي للحقيقـة في هـذا العالـم.

اهيـل عـلى وجهـه الـتراب، ولـم يشـعر الولـد بـالأسى. ولكنـه وفي طريـق عودتـه يلتقـي بابنـة كاميليـا التـي تحمـل سـكيناً وتصيـح:

- أنا حامل.

إن العـدوى تنتقـل بـكل تلامـس. الفيروسـات والبكتريـا والحيوانـات المنويـة، والرغبـة. كل الأمـراض والخطابـات الروحانيـة. وكذلـك الضحـك الـذي انتـاب العمـال وهـم حـول الجثـة.

»زوج عشيقة المدير العام«

كانت أعينهم قبلها هي فقط التي تضحك.. لكن الأشياء تتغير حتى الجمادات مثل النقود. تزيد او تنقص، ولكنها تتغير، ثم تتبدد. والعصفور على غصن الشجرة يراقب الدفن. يزقزق بدون شغف بل كأداء واجب للعزاء.

وتنتفخ البطن بالغازات، الجزر تنعزل بكنوز القراصنة الذين قضوا. كانت هكذا توَّزع أموال الضرائب على الفاسدين. العطاءات الحكومية التي يعدون عروضها ويفضون مظاريفها ويرفضون بعضها ويقبلون بعضها. وتتطاير الملايين على عودة موضة السبعينات حيث فتحت المومس الطريق إلى أحلام البؤساء. ودقت طبول القبائل القديمة لتتبدد حاملة ما تعتقده كنزاً من الثروات الثقافية. وتبدأ رحلة البحث عن وظيفة، وعن نماذج الأسئلة واجوبتها النموذجية. وانغطاس الحزن في قعر الأمعاء. والفزع في الوجوه المكفهرة الغاضبة. والليالي التي لا تفارق نفسها، محمية بالتسلية المزيفة وأصباغ التجميل؛ من برايمر وفاونديشان وكونسيلير وبلاشر وهايلايتر وبرونز وارتكازات

الــلا شــيئية في ســجع مارتــن هايديجــر عنــد الموائــد الزجاجيــة للمطاعــم المحجــوزة مســبقاً، وفــرو الثعالــب خلــف المــوت بــإرادة حــرة.

والتوأمــان تابعــا دفــن جثــة مــن قتــلاه، تابعــا بدقــة دفنــه. لقــد ســار كل شيء عــلى مــا يــرام. ولكــن مــن يأبــه لتربصهمــا عنــد الزاويــة المظلمــة وانقضاضهمــا عليــه بمناديــل الغــاز. بــرزت عروقه البنيــة عــلى رقبتــه ووجــه وباقــي اجــزاء جســده كأنمــا كانــت تحــاول أن تنجــوا بنفســها. وتــدلى لســانه المــزرق عــلى الجانــب الأيــسر ســاخراً مــن ممــشى الغابــة.

هنــا، حيــث تبــدو وكأن التراجيديــا تبــدأ اليــوم وليــس مــن عــصر اليونــان. وحيــث الــشر ليــس شراً البتــة.

فتشــا جيوبــه وأخرجــا مفتاحــاً مــن فتحــة شرجــه ثــم غــادرا والرائحــة العفنــة تتبعهمــا حتــى أن الكلبــين البوليســيين امتنعــا عــن ملاحقتهــا.

»ماذا يأكل هذا الكلب؟«

»شيئاً تعافه الكلاب«

وكانت كرة العين الحديدية لا زالت في علبة الزيت. وهي تحاول مسح شفتيها المشققتين بأحمر شفاه، أو فلنقل بلون بنفسجي، وتنتظر عودته المشمئزة.

وأسدل الليل أستاره ببطء على كوخ الغابة. ونام جميع الأعداء وهم يحلمون باصطياد بعضهم في صباح الغد حتى الغزلان التي تدعي البراءة.

»إن الإنسان يصنع ماهيته«، يقول سارتر بتفاؤل يحسد عليه. ويسند الولد ذراعيه على سياج الجسر الحديدي متأملاً الزيت الأسود والقمر يهتز مَقلِياً فيه. يفكر في الطفل القادم، والقرد على كتفه يبحث عن قملة يأكلها.

»السيدة كاميليا«.. يقولها بكامل أناقته وهو يحمل باقة ورد متنوعة الألوان.

وتنظر كاميليا عبر النافذة إلى خارج الحانة مُنحِّيَة باقة الورد جانباً وتقول:

- ليس ابنك.. أن ممشى الغابة ضيق ولكنه يتسع لجميع التأملات.

ويحاول النظر إلى عينيها بلا أمل، فيغادر.

إنهـا اللعبـة البرجوازيـة القديمـة التـي لـم يسـتطع أن يجاريهـا أي حيـوان لـه لغـة. والقمـر ينقـلي داخـل صفحـة النهـر، يهتـز وينقسـم إلى قطـع زبد متموجـة ومتوازيـة. وتلـوِّح الأسـماك مـن الأعمـاق للسـماء وهـي تبكـي وتبتلـع بعضهـا أيضـاً، إذ ليـس هنـاك تناقـض البتـة عندمـا نقـرأ نقـوش الكهـوف، والمسـلات، والأهـرام والمعابـد وغـير ذلـك. لا تناقـض إذ كل الأشـياء تجثـوا داخـل مطاميرهـا قـرب بعضهـا البعـض. أحفـاد ديـدان الجوافـة يلعبـون في بطـن السـمك. والراحـة الصغـيرة تصبـح قبضـة قاسـية. فليـس للنيـازك أن تخـترق الغـلاف الجـوي إلا بعمليـة انتحاريـة متهـورة. هكـذا يتحدثـون عـن الصُّـدف، والحيـاة لا تنحـاز لـرأي ضـد رأي بـل تحتفـظ بحيادهـا الأزلي.

»الغابة غريبة هذا اليوم«

يقول القرد فيرد عليه:

«يأكلها المنطق»

«عليك أن تجر لسانك على الأسفلت».

ويرتاب القرد، لكنه يفعل ذلك على مضض. فيضحك الكلب من بعيد.

والدودة تصدر البيان الأول وتطالب بالعقلانية. وتقول وهي تحك أنفها:

- الناس يتحدثون كثيراً لأن الأمور ليست واضحة بالنسبة لهم. أما الحيوانات والحشرات فلا..

ويمضي الولد قرب الكرسي، يصطاد رائحة اللحاءات الخشبية، والطين، وأوراق القنب الجافة.

- لكن يا صديقي: ماذا يفعل العقل وحده.

ويقفز القرد من شجرة لأخرى دون انتظار إجابة.

- عليك أن تلحس الأرض كما كان يفعل كلبي الخائن.

- كان يتملقك.. أما أنا فلا .. عليك أن تتقبلني كما أنا لأتقبلك كما أنت..

ويحيطُ الطفلَ بذراعيه. ليمنع عنه البعوض

المنتشر في الغابة. مع ذلك يظل الرضيع صامتاً، وهو يتأمل مسرحية في السماء.

تتلبد الغيوم وتضحك وتقهقه وتبكي. تنسحب جماهير الطيور من ساحة المعركة. وتختبي اليعاسيب تحت أوراق الشجر، وتحبو الدودة لتهبط من ساق الكرسي. وتهتف الديدان من خلف الكواليس. لا تعيش الأسود إلا في البراري. كما لا تنمو النقود إلا في الحركة الدؤوبة. تتغذى على بعضها، وعبرها تنمو غابات الإسمنت، والملاعب، ويواصل صيادو الأسماك حصد الميداليات الشفافة. ذلك أنهم أولاد القرون الماضية كمزارعي الأرز في فيتنام ومن يرتدون مريلة الإعدام الحمراء ليقفوا تحت شرفات الجميلات النائمات دوماً. ويرى الولد الأشياء كما هي عليه. ويبحث عن الكلب بنظره فقط. «أيُّنا كان الخائن؟». إن الحياة لا تعود إلى الخلف. ويدرك القرد ذلك فيسقط من الشجرة ويبدأ في جر لسانه على الطين وهو يضحك.

«نحن صبية الضباب.. نحن صبية الضباب»

أنتم صبية الضباب؟!

«سرقت الأسماك الطائرة الهاتف الوحيد في الغابة وهربت»

وتتموج أشباحهم السحابية بين الأشجار حين يعبر بدوي صحراءهم وهو يقود جمله حتى لا يشعر الجمل بالسأم من وجوه التجار الصارمة. «فلتصنع لي بدل الأقدام عجلات مطاطية، وبدل الرقبة مقوداً وعلق على السنام علامة تجارية كي تواكب العصر». فيكتئب البدوي عندما ينهار عالمه ويشعر بأنه غراب. وعندئذٍ ترتفع زوابع الرمال القُمعية إلى السماء، لتطلب النجدة من الملكوت. «يا صبية الضباب، إنكم تجلبون الخراب دائماً». ويغضب الولد من حديث القرد فيخرق أنفه ويدخل في الثقب خشبة من عشوائيات شجرة المستكة. «لكي تتعلم الكلام» يقول الولد ثم يهرول خلف صبية الضباب حاملاً رضيعه بين ذراعيه.

الكلاب لا تخون، ولكنه الكلب الوحيد الذي يفكر باستمرار في قتل صاحبه.

ألن تأكلا شيئاً؟.. ومن هذا الطفل؟ تقول صاحبة البنسيون ذات الأثداء الكبيرة.

- ابني..

تمد يدها وتخلع أثداءها.

- ألن تأكلا شيئاً؟ ومن هذا الطفل؟

- قلت لك إنه ابني..

تعود وتجمع الأثداء المطاطية وتحشرها تحت ردائها. وتَخرُج عصفورة من ساعة الحائط ولكنها لا تزقزق بل ترتد إلى الخلف بقوة، ويصدر عن ذلك صوت تكة صغيرة. ومن الركن يترنح رجل يرتدي بيجامة النوم المزركشة برسوم البطات الملونة وعلى رأسه قبعة من ذات القماش. يطوح قدمه اليسرى ويتمسك بالصندوق الذي تقف خلفه المرأة.

لا يوجد قمر في السماء، ولا تظهر النجوم من فوق البنسيون الذي بلا سقف.

- عليكما أن تأكلا شيئاً.

وتبدو وقحة وغاضبة.

- ومن هذا الطفل؟

تهدر السماء بالرعد. فيخرج الولد والقرد من

البنسيون والمرأة تلاحقهما ثم تقف أمام الباب.

- عليكما أن تأكلا شيئاً.

ويسمعا تكة ارتداد عصفور الساعة الحائطية، لأن نواة الأرض توقفت عن الدوران. ولكن الغابات والجبال تتحرك في السطح ومعها السحب والروبوتات الحقودة. وتتمازج الاتجاهات، وتختلط الألوان عند الحانة، والثنائي الشرطي يقفان داخل الحانة ويدخل أحدهما يده ليحك خصية الآخر. وهو يؤكد بأنهما سيعيدان الطفل المخطوف إلى كاميليا ليكون عوضا عن ابنتها التي انتحرت بعد أن أكلت يد الرضيع اليسرى. ويؤكد الثاني: «لقد تراجعت أسعار الأسهم في البورصة بعد كل هذه الحوادث المؤلمة في الغابة». فيتطاير البصاق من فم الكهل، ويطالب بسن قانون لتجريم كراهية الخنازير. فيصفق نصف البرلمان، ويعترض النصف الثاني، ثم يجمعون على سن القانون. وتبدأ مراسم الاحتفال، وتمتلئ القنوات الفضائية بالخنازير الباكية. وتصبح كاميليا رمزاً للحرية. وتعلن الديدان تكوين مليشيا بعقيدة قتالية هي الدفاع عن النفس. وتبدأ

محـاولات دؤوبـة لتحريـك نـواة الارض بتفجـيرات نوويـة متواصلـة فتسـقط لافتـة الحانـة الخشـبية. لا شيء في هـذه العبثيـة يثـير الضحـك. لأن وحـدة الوجـود تطبـع ألوانهـا عـلى كل حاويـات الشـحن فـوق السـفن الضخمـة. إنـه عالـم واسـع حتـى لـو ظـل القـرد يجـر لسـانه طـوال الممـشى. ولا زالـت الأرض تطبـع نفسـها عـلى حافـة مجـد مهـزوم. لا زال للحـب مكانـاً أساسـياً في قلـب الحـروب. يعـبر الولـد الممـشى، وتتنفـس الأرض صباحـاً لا يكـدره الغـدر، فتنطـوي صفحـات قديمـة بشـكل مؤقـت. واللثـة التـي لا تحمـل أسـناناً تضحـك بأمل واسـع. فينظـر الولـد إلى الأفـق ويفكـر في إيجـاد ممـشى جديـد للرضيـع. ممـشى لا يمـر بالغابـات الموحشـة كممشـاه، بـل بالمـروج. ويقـول القـرد: بـدأت تكـبر.

تخفـف الشـمس سـطوتها وتسـمح للغيمـات القليلـة أن تمـشي فـوق رؤسـهم.

لا ينكـسر حلـم الإنسـان أبـداً.. حتـى وهـو يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة. فيلتفـت للقـرد ويقـول:

- لذلـك لا تتحـدث الحيوانـات كثـيراً أيهـا القـرد

لأنهـا لا تحلـم.. هـل فهمـت.

يقفز القرد فوق الأشجار ويرفع سبابته:

- فلتسـقط كل المالـك والامبراطوريـات.. بيزنطـة وفـارس والأمويـة والعباسـية والعثمانيـة وليختنشـتاين.

فيضحك الرضيع.

وتحتفـل الغابـة بالرضيـع. تتنـازل القـرادة عـن كرسـيها ليجلـس الرضيـع، وتـرش الأفيـال المـاء فوقـه، وترفـرف اليعاسـيب بسرعتهـا المجنونـة. وتمتنـع الحيَّـات عـن التهـام الضفـادع، وتمـد الأشـجار الشـوكية فروعهـا بأمـان للعصافـير والطيـور. فليـس للمـوت عنـوان.

ويقـف الشرطيـان عـلى مفـترق طـرق مسـفلتة ويمسـحان عرقهمـا وهمـا يفتشـان بأعينهمـا عـن اللـص الغامـض.

»إن الأخـلاق نتـاج مـن يرفضـون الاقتنـاع بالحقيقـة«.

»بإسم القانون.. أرفض ذلك«.

ويرفع الوسطى لأعلى حيث تصبح السماء صافية أكثر مما يجب. فيقبلان بعضهما بعشق والأحذية العسكرية الممزقة تغطس في الطين وتجر معها الطحالب الخضراء. وتغني الأنفاس الحارة. الخوذات الحديدية المثقوبة تحتجز الدم، وترتعش الأصابع ذات الخواتم الفضية. والشباب في المراقص الليلية المتلألئة يحاولون تجنب فهم الحياة. تهبط روح الفتاة من السماء. «مجرد خيوط من الحمض النووي نحن». يقول لها الرضيع. فتبكي وهي تضحك.

»لا تخض مغامرة الحب أبداً«

ثم تمسح على شعيراته القليلة برفق، تقبله وتعود إلى السماء لأول وآخر مرة. وتحدق سلحفاة معمرة في الأفق.

كل الأيدولوجيات تتبدد عندما ينبض قلب أحمر في ساحات الحب الخالية.. ترهن الشتاءات معاطف الربيع والأكواب الساخنة على طاولة المقاهي في أطراف المحطات البعيدة.

«سأبقى وحيداً حتى الموت.. في انتظارك إلى الأبد..». يكتب ذلك دون أن يفكر.

ما هي الحياة؟ إنها إحساس فقط.

ويسير الولد والقرد بمرح حتى الركن الجنوبي الغربي من الغابة وهما يتبعان أغنية الولد الذي لا يكذب أبداً. والتي تغنيها جاكلي صانعة المعكرونة. «الولد الذي لا يكذب أبداً.. يعاني من كذب الآخرين». وتمنحهما طبقاً واحداً من المعكرونة ذات الصلصة الحارة. كانت تلصق أقماعاً على فوهة المفرمة، وتقول: تخرجك فوهة المفرمة في شكل دودة، أو حمار، أو قرد، أو أسد، أو أرنب.. فلا تقاوم لأنك لست من يصنع القُمع.

- ومتى أصنع القمع؟

يسألها القرد فتقول:

- لن تصنعه أبداً. يجب أن تودع هذه الأفكار الشريرة..

وتضحك فتتساقط من فمها الحراب المسننة. إذ أنه لا شر ولا خير في هذه الحياة. وكتب جون ميلتون ملحمة الشياطين الصغيرة ذات الكروش الضخمة والملساء ككروش الخرتيت. ومن

كان مقتنعاً بذلك أكثر من الخيام الرابض في تبصراته الباكية. ها هي حربة مسننة ذات حراشف، وأخرى ملساء، وثالثة مدببة، ورابعة مطروقة كخوذة جندي روماني صرعه أسلاف الخيَّام. وتحشر جاكلي لقمة في فم القرد فيمد لها مؤخرته. «هذا هو المكان الصحيح». هكذا هي يا موليير. هكذا هي. فيتصبب الولد عرقاً ويشرع في الهرب. لقد توقف عن التدخين لأنه يضر بالرضيع. وفي كون موازٍ لم يكن هناك من رضيع، بل مصانع للسجائر، تحدد مصير القطب المتجمد ومصير قُبلة في الهواء. لا تكتئب. ويَنقَضُّ الكلب فيقبض بفكيه على عنق القرد ويخنقه حتى تسيل الدماء السوداء السامة، ويموت ولسانه يتدلى من جانب فمه الأيسر كزوج عشيقة المدير العام تماماً. يسحب الكلب الجثة ويدفنها خلف شجرة وهو يتمتم بتعاويذ حزينة. ويظل الولد متجمداً. «سأسير معك». تذكر دائماً إنه ممشى الولد والكلب.. هكذا أسميته أنت لا أنا». ينظر الولد إلى الرضيع ثم إلى الكلب ثم يومئ برأسه، فيجر الكلب لسانه على الأرض، ويسيران في الممشى المجهول.

«ستحدث العدالة في العالم عندما يشنق جميع العمال والفقراء والبؤساء أنفسهم».. هكذا هو الخوف المتجمد. يمضغ الكلب الكلام وهما يشقان طريقهما بين قيعان الجثث الصارخة. والباحثون عن وظائف شاغرة في الطوابير الخامسة يفتحون أفواههم المتعفنة لكي تنظفهم الأوهام. هؤلاء يتكدسون في مشارح الزهور، ويخلع الولد قبعته احتراماً لتاريخ سيُكتب في المستقبل. يمسح شعره الفلفلي بأسى من العرق. وتضعف خطواته من الألم.

«اين صبيان الضباب؟»

«وأنا كذلك مشتاق لهم»

وينحدران في وادي الضباب ذاته. «ستتحولان إلى صبية الضباب» ويفتح الكلب عينيه على اتساعهما «وأنا كذلك؟». من يحكي قصة ليستأنس ليلاً يحضن النهار. والموتى السابقون صورهم تضحك باستمرار. لا يتخيلهم وهم يبكون. لذلك ترتعد السماء وتحبلهم في المنامات أحلاماً. وتظهر قبيلة الأقزام وهي ترقص حول خنزير وحشي بساق مقطوعة وخطم محاصر

بنابين شقيين.»هلموا.. هلموا» وتبدأ ألعاب الحاوي، فينفخ النار من أعلاه ثم أسفله.. فيضحك أبناء الغابة.. ويحك الأسد أنفه بالتراب حتى لا يقهقه. «هلموا هلموا فالحياة حلوة» ويستمتع الولد والكلب في وادي الضباب. ومن حولهم كراسات مسطرة بمربعات صغيرة، لكي تُكتب فيها الأرقام بأيدي ضحايا مستقبليين حين يتبعثر السديم الأصفر المشع حول بقعة منخفضة هي مسرح يختصر الوجود.. «لقد خسر الإنسان براءته يوم عرف المجاز». يبكي الكلب أثناء جره للسانه على أشواك الأرض ويتجهم وجه الولد وهو يحلِق ذقنه وذقن الرضيع. «قتلتَ القرد» فيكتفي الكلب برفع لسانه والأشياء تأكل ذاتها، وتغتصب ذاتها، لأنها لا تشكل كينونتها المحضة بإرادتها. هكذا هي القرارات السمجة عبر الزمان. «إنه الجنون بعينه». يفتح الرضيع فمه ليبتلع الظلام ثم يمد يده فينهش السماء بقسوة بريئة. لا حب إلا هنا في هذه الزاوية المنكوبة بالجائحات. ويرفع الجميع رؤوسهم نحو السماء ثم يخفضونها بقنوط صارم.

تساقطت الميتافيزيقا العجوز ونمت أشجار من النعاس الغادر. فلنتلكأ قليلاً لكي نكون نحن. يقول الكلب «أو لا نكون». يريان لعاب الضباع وقفزاتها الرشيقة كالأجراس النحاسية المعلقة في الكاتدرائيات القديمة. «من سيلتهم من؟ في هذه الحياة». يرتدي الكلب جوارب الشتاء ويلعق الأرض بحذر.

(٣)

«لقد انهزمت مملكة القراد وحطت في جسدك».

«وأنت امتلأ شعرك بالشيب».

«أدركت ذلك حين رأيت امرأة في الزحام».

وتمتلئ الأسواق بالقنابل، وينحسر الماء عن الرمل مخلفاً أصدافاً مستوحشة فتلمع لتقاوم

احتضـــاراً لا نهائيـــاً إلى أن يغمرهـــا مـــاء البحـــر مـــن جديـــد. ويضحـــى الممـــشى متعبـــاً أكثـــر مـــن ذي قبـــل. يخلـــع الكلـــب جـــوارب الشـــتاء ويرتديهـــا الولـــد وهـــو يتـــأوه ويراقـــب خـــط أثـــر لســـان الكلـــب الطويـــل.

«مضينا بعيداً»

«ربما.. لا أدري»

«هل نعود؟»

«هل نتوقف؟»

«لا.. لا سبيل إلى الوقوف»

«الأرض تســـير تحتهمـــا، وتقفـــز الحقائـــب مـــن الســـير، الكبـــيرة والصغـــيرة، الحمـــراء والكاروهـــات، والبلاســـتيكية والقماشـــية.. وتراقبهـــا العيـــون التـــي تفكـــر في أشـــياء أخـــرى كثـــيرة، كحـــب التملـــك، وافخـــاذ العـــروس الســـمراء، وكـــرسي القـــرادة، ومكرونـــة مقهقهـــة، ورمـــل أحمـــر، ومشـــط بلاســـتيكي أســـود، وصراع الفيروســـات مـــع كريـــات الـــدم البيضـــاء، وحكـــم بالإعـــدام، ومخـــاوف كثـــيرة أخـــرى لا حـــصر لهـــا. تزحـــف الظـــلال عـــلى

السيراميك، وتشع انعكاسات المصابيح البيضاء عليه كقيء الملائكة. وتطؤها أحذية رجالية سوداء وكعب عالٍ أحمر أنثوي. وتعلن عشرات الرحلات موعدها وتخفي ملايين وجهها المصبوغ بأصباغ التجميل المنكسرة على ألواح حديد النوافذ رخيصة الثمن، والأعشاب التي تُلقى بعد اقتلاعها بلا هدف تحت زوايا الجدران الحجرية المتملقة لانحدارات الجروف الصخرية فترقص معها؛ تدور وتنحني وترتفع وهي تلف خصرها بذراعين صلدتين. «كانت كما يرى المرء في المنام».

«وعبرَت؟»

«عبرَت واختفت وأدركتُ بأنني كبرت».

«لم تعد تحب صِبية الضباب؟»

«بل لا زلت أحبهم.. ولكن»

ينفض الكلب جسده فتتطاير القرادات المنتفخة. وتغوص كل واحدة في كرة من الثلج الجاف.

«ما كان اسمك؟»

«كان اسمي روكو»

«كان اسمك روكو.. هذا جيد»

«والآن؟»

«لا أتذكـر.. كانـت هنـاك معركـة في الغابـة.. معركة كبـيرة حـين فقدت الاسـم»

«هل مات الكثير؟»

«لقد قدم كل واحد منهم سيرته الذاتية»

وينظر إلى الرضيع.

«لقد ألفوا فيها الكثير»

وضحك..

«لم يكن فيها الكثير؟»

«تقريبـاً.. كانـت خاليـة تمامـاً كقلـب أم مـات رضيعهـا»

«أو نظرة رضيع ماتت أمه»

وبـدا لـه أن شـباكاً مـن الشـوك بـدأت تنمـوا في قلبـه. فأدخـل سـبابته في فـم الكلـب المنكـسر وأشـاح عـن هـذا العجـوز الثرثـار الـذي يجلـس مرتديـاً جلبابـاً متسـخاً وممزقـاً فـوق فرع شـجرة

قــوي ويلعــب بإيــره ليلفــت انتبــاه الخنازيــر الوحشــية التــي أخــذت تحــدق فيــه وتلعــق لســانها بعيــون ميتــة.

«وقــد بــدا الحــب لي رفاهيــة طيلــة حياتــي». ويغــوص في جــوارب الشــتاء، ســائراً عــلى يديــه. فيقلــده الكلــب. «لا يوجــد شيء ممنــوع في الغابــة». ويتلفــت باحثــاً عــن شيء. «فــلا يوجــد شيء». ويســتمران في المــشي بأيديهمــا. إننــا في حاجــة إلى قفــازات مــن جلــد الســلحفاة العجــوز. وتتســمر أنظارهمــا نحــو الأمــام. وتلحــظ الســلحفاة ذلــك مــن بعيــد فيحدثهــا قلبهــا القديــم عــن الاجتيــاح. تتحطــم القواعــد، وتتأســس الأخــلاق عــلى الضعــف وانعــدام الحاجــة. حينهــا يتــلألأ الــدم فــوق ســطح القمــر. وينحــاز الســاحر إلى مجتمعــه دومــاً لأن الأرواح ليســت أنانيــة. تــسرب بــؤس في خلايــا الدرقــة المرقطــة. وكان حزنــاً مؤقتــاً لكنــه عميــق يطــوف في ممــشى الغابــة. «الأشــياء تُصنــع ولا توجــد.. أمــا مــا يوجــد فليســت الأشــياء بــل الوجــود نفســه» ويلعــب العجــوز بإيــره وتتقــدم نحــوه الخنازيــر الوحشــية بحــذر. «فلتتعلمــن منــي يــا حلــوات». ويبتلــع الــضرس الأخــير في

فكـه فتخنخـن الخنازيـر الوحشـية وتطـوح رأسـها وتتقـدم خطوتـين نحـوه. إن كل شيء هنـا عسـلي اللـون، حتـى الضبـاب والقمـر والأشـجار وطحالـب المـاء والولـد والكلـب والديـدان والقـراد، كل شيء منهمـر كالمطـر بحيـث لا يصلـح عـده. ترتقـي المأسـاة إلى السـماء وقيعـان الأرض المجدبـة، وتبكـي الثعابـين بـلا صـوت تحـت ظـلال الأبنـوس فتنمـو لهـا أصابـع خـدج لدنـة ونحيبهـم صفـير واهـن. «مـا تاريـخ اليـوم؟» ينـزع الكلـب القلـم مـن وراء أذنـه بيمينـه ويفـرد الكواغـد بيـسراه. «ومـا هـو اليـوم؟». ومتـى كان ذلـك حقيقـة؟ يلقـي بمـا يحملـه ويطـرح رأسـه لينـام.

»ماذا يستفيد الانسان من الحياة إن عاشها؟«

وخرطت الإجابة دماغه كثقب أسود.

»لا تكن فيلسوفاً.. فهذا غباء«

ويلعـب الولـد بالحجـارة، يقذفهـا فـوق بعضهـا البعـض.

»إن أزمة الإنسان أكبر من أن يفكر فيها كلب«.

يضحك الكلب ويشرع في لحس الأرض.

وينظـر الولـد للنـور في السـماء. ويتمنـى لـو ينتهي هـذا الممـشى. فيتثـاءب الكلـب ليشـعره بالملـل مـن حديثـه.

إنـه ممـشى بـلا نهايـة ولكنـه مكـرر، كإعلانـات الحـروب، والأوضـاع الجنسـية. والحديـث عـن التحـضر، ومعايـير العـصر الرومانـسي.

»روكو لا يموت«

«كان اسمي روكو منذ عهد طويل»

والآن؟

لقـد نسـيت. إن كل الأشـياء تتسـاوى عندمـا تخـدم العبـث. تكـون الصدفـة هـي التـي تجعلـك تفتـح عينيـك لتجـد نفسـك إلهـاً أو دودة، وهكـذا فهمـا متسـاويان.

»روكو.. انقذني يا روكو«

ويشـعر الكلـب بأنفاسـه تنقطـع. لحيتـه طالـت وبنـى القـراد فيها مسـتعمرة ضخمـة. أكل العشـبَ وتقيـأ وتـبرز ولكـن دون جـدوى. فقـد حطـت عليـه الشـيخوخة المبكـرة.

»ابتلعتُ أولادي من أجلك يا روكو«

»أخطأت«

تتقلص معدته فيئن، وتتسرب مرارة إلى حلقه. بعد قليل كانت جثته تنتفخ ولسانه يتدلى من جانب فمه الايسر كالآخرين. أما عيناه فكانتا رماديتين.

بكى روكو وهو جالس فوق تلٍّ رملي على جانب الممشى والرضيع في حجره. ولكن عفونة الجثة كانت أكبر مما يمكن تحمله فغادر بصمت.

كان الممشى سابحاً في ضوء الشمس. ورأى روكو أذنين طويلتين. ثم قفز أرنب بري وقال:

- هل تريد رفيقاً؟

- هل تستطيع لحس الأرض؟

- لساني قصير ولكنني سأحاول.

***

(٤)

في عـود أبـدي، وكـون مـواز، تبـدأ القصـص مـن جديـد. تبـدأ بحـرب عظيمـة.. كل شيء ينعكـس، بـلا رومانسـية أبـداً. يؤسـس أفلاطـون لديسـتوبيا المـوت. وتحكـم البروليتاريـا في جمهوريتـه. ويسـتيقظ الألـم في جيـوب المسـاء المبعثـرة عـلى أشـباح الصخـور السـوداء. ينعكـس كل شيء، ينهـض الكلـب مـن موتـه القديـم، وكذلـك الولـد، عـلى أعتـاب مؤامـرة جديـدة محفوفـة بجهـل

المسببات، بجهل الأصالة، الرسام يتضاءل وتنمحي اللوحات لوناً لوناً، ثم تعود الورقة إلى لحائها الشجري. وينعكس بدوره الممشى الذي بلا بداية ولا نهاية. لذلك يقول الولد وهو يتقيأ الموزة بقشرها:

- صحيح أنني بعد أن ذقت طعم وجودي فضلت عليه العدم.. لكن ماذا لو لم أخرج من العدم إلى الوجود ؟ هل كان بإمكاني أن أعرف قيمة العدم وثرائه باللا شيء؟

«سؤال ساذج» يجر الكلب لسانه ثم يتوقف فينبح نبحتين وينظر بطرفي عينيه الجزعتين دائماً إلى صاحبه قبل أن يطأطئ رأسه مرة أخرى ليجر لسانه على الأرض وهما يسيران بظهريهما إلى الخلف. وتتقلص الأشجار. تقفز جثة القرد، وتنمو زهرة البنت، ويختفي الرضيع. فيحملق الولد في كفيه بخوف.

تتحرك الشمس إلى الخلف، وترتفع الأمطار من الأرض إلى السماء.

ينظر صاحب العمل إلى العامل شزراً. وينكسر قلب العامل. الأموال تعود لمن سرقوها. لقد

أخذهـــا أصحابهـــا، وعـــادت لمـــن سرقوهـــا.. لا اســـترداد، العالـــم مخيـــف، أشـــباح صبيـــة الضبـــاب تبكـــي مختبئـــة خلـــف أجمـــة، وهنـــاك تاريـــخ يـــدوَّن يبـــدأ مـــن لحظـــة الاســـتيقاظ مـــن المـــوت، والاتجـــاه إلى المـــوت نفســـه. «الأشـــياء هـــي نفســـها مهمـــا عكســـناها» ويطـــير الولـــد فـــوق الأشـــجار. »ســـنحصد المطـــر». ويتبعـــه الكلـــب، ليبـــدأ في لحـــس الســـحاب. «انخفـــض قليـــلاً أيهـــا الكلـــب المجـــرم». ثـــم يســـقطان. القائـــد يطلـــق رصاصتـــه عـــلى الأســـير بسرعـــة ويســـتولى عـــلى علبـــة ســـجائره ثـــم يدخنهـــا بنهـــم. فتنهـــض أشـــباح الجنـــد، وتحلـــق حولـــه. إنهـــا النهايـــة، فيتقيـــأ الخمـــر كلـــه دفعـــة واحـــدة. وتهـــوي عصـــاة رقيقـــة عـــلى الطبـــل. يحرك الشـــاب فخـــذه متتبعـــاً الإيقـــاع. إن الموســـيقى أزليـــة لكنهـــا لـــم تكـــن أســـطورة مقدســـة البتـــة، كانـــت متوائمـــة مـــع الواقـــع، وجـــزءً منـــه. ترفـــع الفتـــاة تنورتهـــا، وتُخـــرج لآلـــئ مـــن بـــين فخذيهـــا وضابطـــي شرطـــة، يخرجـــان دائخـــين ومترنحـــين «رائحـــة زكيـــة». الغربـــة العارمـــة تدفـــن نفســـها تحـــت تـــراب الممـــشى. وكل الكـــون المـــوازي ينتفـــض فتتطايـــر نقـــرات الجيتـــار حولـــه. «كُلنـــي.. كُلنـــي»..

«لا أستطيع أن آكلك».. يصبح لسان الكلب مُجرَّحاً. فيرفع رأسه وينتحب. «لا تتأنسن مرة أخرى».. «إنها معضلة.. معضلة حقاً». الكتب الجديدة تحترق.. ورائحة الألوان تنتشر في الجو وتخترق خنادق النمل المجنح فيختنق جانب كبير منه وتهرب قلة إلى الأسفل. وتدور القلوب داخل الخلاط فيضحك العجوز ذو اللثة الخالية من الأسنان. «سائل من دم القلب». ليس بديلاً عن الأوميجا، ليس بديلاً عن شيء جيد. وتعبث الرائحة الذفِرة بابتسامة العجوز. تجثوا الخنازير على مقدماتها وتعطي العجوز مؤخراتها فيضحك بسعادة ويفرك ذكره. ومن الزقاق الشرقي، تخلع فتاة حذاءها طويل العنق لتبدأ عملاً عابراً بثمن بخس بعد ليلة طويلة عامرة بالركود، فيتوقف الولد والكلب ويحدقان في المشهد. «هل هذه حياة أم موت؟».. «بحسب» يهمس الكلب. للحقيقة وجوه عديدة كما يقول هوجو، «حتى الألم؟» يقول الكلب «لست متأكداً». ويبدو الكون الموازي مهووساً بالإنعكاس محاولاً إلباس العبث نظاماً معنوياً.

وكانت الأرض خصبة بالدم، بالرياحين الثلجية،

وبوافـــر الانعتـــاق في الرقصـــات الإفريقيـــة لأشـــباه العـــراة وهـــم يقلـــدون أصـــوات حيواناتهـــم بمهـــارة فقـــيرة ويحرقـــون الشـــوك ليستنشـــقوا دخانـــه. كانـــت الأوانـــي الفخاريـــة تنقـــع في الرمـــال، لتقطـــر نبيـــذ السمســـم. ولـــم يكونـــوا يعرفـــون الكتابـــة لأنهـــم لـــم يكونـــوا يعرفـــون الحـــزن بعـــد. هـــذا كان قبـــل عـــصر الحكمـــاء الخمســـة، أو الآلهـــة الخمســـة الذيـــن جابـــوا الكـــرة الأرضيـــة. ومـــن هنـــا تشـــكل الممـــشى الـــذي لـــم يعـــد مقدســـاً، إذ عـــبره قراصنـــة الرمـــال وعاهـــرات الطيـــور، والجنـــود الأغبيـــاء، والمجانـــين، وصانعـــة المعكرونـــة، وماســـحو الأحذيـــة، والعازفـــون والطبالـــون وزمـــرة القـــراد الملكيـــة، والعروســـان المنتحـــران، ودببـــة القطـــب المتجمـــد، وضارعـــات اســـخيلوس، وحجيـــج المعابـــد والأضرحة المباركـــة. وفي هـــذا الممـــشى -كمـــا يحكـــي العجـــوز للولـــد والكلـــب- مـــشى الشـــيطان نفســـه وخلفـــه ســـار أولاده العـــشرة آلاف، وزوَّج في نفـــس هـــذا الممـــشى ابنتـــه الوحيـــدة لعموتـــارح ولفاوســـت بعـــد أن مـــات عموتـــارح ولمئـــات آلاف آخريـــن، وتأســـس محفلـــه العالمـــي عـــلى مـــن قطعـــوا أيديهـــم دليـــل الإيمـــان ونكـــران الـــذات. والذيـــن أُمـــروا أن يمشـــوا

ليدونـوا تاريخـاً مزيفـاً للعالـم. »لسـت وحدكمـا مـن مشـيتما في هـذا الممـشى» وتفـوح مـن تحـت جلبابـه الممـزق رائحـة عفنـة، ثـم يخـرج منهـا خنزيـر صغـير تـضرج خـداه بحمـرة الخجـل وعبرهـم مسرعـاً فتجهـم وجـه العجـوز وطردهمـا.

وعـلى دقـات الطبـول تقافـزا وهمـا يسـيران، وجلجـل الولـد بصرخـة منتعشـة، وتثاءبـت ديـدان الطـين. ثـم امتـلأت مثانـة الأحجـار بشـعلات صغـيرة. فأخـذ الكلـب يحـدق في صـورة وجـه الولـد وفي وجـه الولـد بحـيرة. «هـل رأيـت وجهـك مـن قبـل؟».. تسـلق الولـد شـجرة الجوافـة وقطف واحـدة وغمـس فيهـا وسـطاه وشـم الرائحـة فأبعـد وجهـه عنهـا. «أوف.. لا.. ولا أريـد». «ألا تشـعر بالفضـول؟» أخـذ يمخـر الثمـرة ويفلطحهـا لـيرى الـدود. الظمـأ منـدس هنـاك.. منـدس في كومـة مـن المناخـات المضطربـة. وشـاحنة بيضـاء متهالكـة تحمـل الأثـاث الفقـير عليهـا. «لـو عـاد لـن يجدنـا». ولكنـه لم يفكـر حتـى في العـودة. كان الحـب مؤلمـاً بالنسـبة لمـن لـم يعتـد عليـه مـن قبل. إنهـا فاجعـة وإيقاعـات سريعـة ترهـق الأعصـاب الذهبيـة. تنحنـي الشـاحنة وتغـوص عجلاتهـا في

ربيع من الأمل كالمعتاد. «إن الحياة حسرات متجددة.. هذا كل شيء».. «إنه لا يكرهك.. أبداً لم يكرهك.. حتى قبل أن تموت.. الأشياء تتضاءل في الحقيقة عبر الزمن ولا تكبر».. وتراقب عبر النافذة ممشى الرمال الحمراء بلون الشفق. يشمر الكلب قميصه من الأسفل ويرفع قدمه ليتبول ولكنه يتوقف ويحدق في السماء ثم يتلفت حوله ولم تخرج قطرة واحدة منه. «لقد أصبتُ بالبروستاتا».. ويهبط الولد من الشجرة ويسير بقفزاته المرحة في الممشى، فيتألم الكلب ويعصر لسانه على الأرض سائراً خلفه.

***

والغرفة مظلمة، بنافذة واحدة مغلقة وزجاجها المبخر بالتراب يسمح بضوء أصفر مكتوم يتلصص على الداخل. هناك رائحة خل. خل محض تنبعث من تحت مفرش مترب فوق طاولة خشبية دائرية تتسمر كصنم في المنتصف، فوق المفرش تفاحة جافة ومقضومة قضمة صغيرة، تلتصق بها خيوط عنكبوت ثم تسافر طائرة بزاوية خمس وأربعين درجة حتى أقصى الركن العلوي للسقف. ويبدو هيكل

لسريـر مـا.. سريـر صغـير المسـاحة وقصـير إذ لا يسـع إلا فتـاة في السادسـة عـشر أو خنزيـراً مدجناً. الأرض مغطـاة بمشـمع بلاسـتيكي ممسـوح بأتربـة دقيقـة الـذرات. وعـلى الممـشى أن يلتـف حولهـا ليواصـل امتداداتـه السـخيفة المملـة كقصـص بِلزالـك وهـو يجـرع مـن زجاجتـه ويـضرب نقـداً ذهبيـاً عـلى طاولـة القمـار فتتبـدد داخلـه القيـم، وينحـاز تـارة للحـب وتـارة للانتقـام مـن الـذات. ونقطـة الضـوء الحمـراء تتبـدل لخـضراء ثـم تتبـدل الخـضراء لحمـراء ثـم تهجـع الأشـجار متينـة الخشـب متحديـة مفترسـات الغابـة. غـير أن صـدى الأغنيـات يتأرجـح في السـماء، ويلـون رتابـة المنـاخ الصيفـي. وحـين يكـسر الولـد بـاب الغرفـة تنطلـق صرخـة الفتـاة العارمـة فيتراجـع الولـد ويهـرول ويتبعـه الكلـب الـذي يفشـل في تثبيـت لسـانه عـلى الأرض. «لذلـك أكـره البيـوت» .. وتظـل صرخـات الفتـاة تنطلـق بألـم شـديد. «هـل رأيـت شـيئاً؟»، «ليـس بالـضرورة أن تـرى لتؤمن». يتوقـف الكلـب ويضحـك ويتبعـه الولـد في الضحـك وهـو يفـرش كفيـه عـلى بطنـه ويحنـي ظهـره إلى الخلـف باغتبـاط. يحلـب الكلـب مثانتـه ليخـرج

البـــول المحتقـــن أثنـــاء ضحكـــه. ويقـــترح الولـــد إدخـــال قشـــة في ذكـــره لتســـلك لـــه المجـــاري فيخـــاف الكلـــب وتتســـع عينـــاه ثـــم يضـــع لســـانه عـــلى الأرض ليغـــير الموضـــوع.

«إننـــا لا ننـــام أبـــداً.. ألا تـــرى الهـــلال الأزرق المشـــع يـــكاد يلامـــس طرفـــه الحـــاد أنفـــي». يمـــدد الكلـــب جســـده عـــلى الأرض ويغفـــو أو يحـــاول أن يغفـــو رغـــم صرخـــات الفتـــاة التـــي تأتـــي مـــن بعيـــد.. «علينـــا أن نغلـــق البـــاب عـــلى روحهـــا الناســـكة». ولا تتوقـــف آلام الأشـــياء وأقـــلام الرصـــاص المنكـــسرة عـــلى شـــفة قرمزيـــة ناعمـــة. هنـــاك أســـئلة، دائمـــاً هنـــاك أســـئلة، أســـئلة بائســـة عبثـــاً تحـــاول مـــلء الفراغـــات والتجاويـــف الســـوداء في حيطـــان الوجـــود العجائبيـــة. ربمـــا يهـــرق عليهـــا كافـــكا وغيرهـــم بعضـــاً مـــن بصاقهـــم المحفـــوظ في براميـــل التعتيـــق اللغويـــة. غـــير أن هـــذا لـــن يكفـــي أبـــداً. إن الممـــشى ينحـــرف دائمـــاً، ويغتســـل برائحـــة رطوبـــة القراميـــد المنهـــارة، والتناجـــي بـــين العروســـين المنتحريـــن. كل الأشـــياء هـــي كمـــا هـــي، كانـــت كذلـــك، بـــل حتـــى عندمـــا تكـــون فإنهـــا تكـــون لأنهـــا هكـــذا يجـــب أن تكـــون. ولذلـــك يـــصرخ المُـــدان وحبـــل المشـــنقة يُلـــف

حـول رقبتـه. فمـن يقتـل الفتـاة يجـب أن يُقتـل. وهكـذا يمـوت اثنـان بـدلاً عـن واحـد لأن العدالـة هكـذا تقـول مـرددة أقـوال كانـط المثاليـة. لـم يقتلهـا السـكين بـل الحـب المغـدور. فسـيقانها كانـت رقيقـة جـداً كسـاق اليعسـوب، ونهدهـا متكـور كليمونـة مقرفـة. أشـياء لا تشـبه إفريقيـا كثـيراً. ولا تشـبه أي شيء في الواقـع. يمتـص التكـرار العمـر وحبـكات المسرحيـات الأثينيـة. كانـت غلطـة كـبرى، ويـضرب المُـدان جبهتـه عـلى جـدران الغرفـة وهـو يبكـي وجسـد الفتـاة مُسـجىً عـلى السريـر الخشـبي. «لـن يصدقـوا أنهـا انتحـرت» ولكـن أي حتميـة مغفلـة تلـك التـي تفتقـر إلى كل منطـق الدنيـا. ويحـاول الولـد تثبيـت البـاب عـلى الجـدران الواهنـة دون جـدوى فيركلـه غاضبـاً ثـم يتركـه ويعـود إلى الممـشى متجاهـلاً الصرخـات المزعجـة.

لـم يكـن ذلـك تحديـاً، بـل محاولـة للتجـاوز. إذ عـلى الولـد والكلـب أن يقفـزا دومـاً فـوق المكعبـات الحـادة. ولا يمكـن التغلـب عليهـا إلا باعتبارهـا لعبـة، وليـس تحديـاً. وصمـتُ النهـار يرفـرف عـلى القبـاب والـصروح والأضرحـة وشـواهد القبـور،

فعلى الضفة الشرقية تنساب الستائر المصنوعة من الكتان المتين وتنغمس في نهر الرمل، تبتل به وتعود لتزكم رائحة الند الهندي الأنوف. يجلجل جرس المعبد، ويصطف الغلمان متماثلي الرداء. ويبدأ طابور التعذيب. لأن الآباء يعلقون أحلام النجاح على مؤسسات محددة مضحين بالسلام النفسي. فتدور مروحة السقف ببطء، وتنساب قطرة عرق من وجه الرجل الذي يسحق طفلا تحت بطنه. ويأكل الفزع الليل، حتى لا تتجانس ثمار الرمان مع بيئتها، تنعزل وتحتاط لنفسها بالبكاء المرير. وتحرك الخنازير شفاهها القذرة. «سوف ترى أيها الولد معنى الحياة الحقيقي». ويختبئ الكلب وراء ظهر صاحبه ولسانه ينجر في الأرض بوهن. وتدخل أفواج من القردة معابدها المنحوتة في الهواء. ولا فرق بين الحجر والعدم، فكل جوقات المسرحيات القديمة كانت تهرج من أجل الانغماس في معنى مختلق. وينفض الكلب رأسه ويفكر في الهجوم على شمع النحل. ثم يراقب بنهم. «إنك لا تفكر أبداً يا روكو» يصرخ ويبكي فيتجمد الولد.

»إنـك لا تفكـر في الآخريـن أبـداً يـا روكـو».. يضحك الولـد ويمتلـئ صـدر الكلـب بالغضـب والحـزن. ولكـن كل السـحابات البيضـاء تجمـع ذراتهـا مـن الأرض، وتحلـق تحـت أجنحـة البـط الـبري. فهنـاك زهـرات منقوشـة عـلى الـدولاب الأبيـض، الذكـرى القاسـية، وقميـص تركـوازي منشـور فـوق كـرسي أبيـض أيضـاً. وطاولـة كـي، وسـلة قـاذورات تنفتـح بدوسـة قـدم. وحقيبـة تتشـتت داخلهـا وفوقهـا ملابـس. وحاسـب آلي، وعلـب سـجائر وأعقـاب سـجائر، وقلـم حـبر لا يعمـل، وقداحـة صفـراء، وحـزام ملقـى فـوق بنطلـون عـلى السرير الأبيـض، وتحتـه ملابـس أخـرى، ونافـذة تطـلُّ على كتلـة أسـمنت خرسـاء، ومروحـة ومصبـاح نيـون، ومصباحـان أعـلى السـقف عـلى جانبـي المروحـة، وهنـاك صنـدوق بـأدراج لا يعـرف أحـد مـا بداخلهـا، ولكـن فوقـه قبعـة رياضيـة ونظارتـان، وراوتـر، وبـاب ضُيِّـق بقبعـة طريـة معصـورة بـين البـاب وإطـاره. وهنـاك نقـوش لزهـرة اللوتـس في كل مـكان وكأنهـا مقـبرة فرعونيـة. كل هـذه الأشـياء لا تعنـي شـيئاً لـه. فهـو يلون سـماءه بالموسـيقى كمـا يـردد دائمـاً، وبالتفكـير في خطورة

النمل المجنح خاصة في الخريف. وهناك كراسات وأوراق أيضاً. وفي الخارج تمتد مساحات شاسعة من مكعبات الخشب المدفونة حتى ثلثها في التراب الساخن. ولا شيء داخل تلك المكعبات كرسائل أو رسالة فلسفية، إنها هكذا، شيء فوضوي كيفما اتفق لها أن توجد. ويقبض الكفان الشابان على مقود السيارة الرياضية، ويعلوا صوت موسيقى الروك في الداخل ويكتمه الزجاج السميك عن الخروج. وتتطاير الشرارات تحت الإطارات فتصرخ الفتاة مغتبطة ضاحكة وتنحني على صدر الشاب وتفرك له شعر صدره وتقبله. كل المجون يتطاير مع المعدن المسبوك بعنايةِ مصانع الشركات العابرة للقارات. وتفرم الماكينة الضخمة كف رجل فيغمى عليه ويُطرد من العمل. والقضاة يتهامسون ويتهامسون وهم متجهمون كالمعتاد. وفي حمَّام المحكمة يجر الفتى الفتاة وينغمس معها في الجنس والتدخين. ويشاهدهما كبير القضاة من شاشة أمامه فيفتح سوستة بنطاله. وبأصابع مرنة ومحترفة، تتوزع أوراق الكوتشينة والنقود الخضراء. وتفور زجاجات

الجعــة. فتخمــد أنفــاس متعفنــة في الأزقــة مطفــأة المصابيــح. والمصابيــح الزرقــاء تنــير الهايــبر ماركت الضخــم والمــول والكازينــو وطوابــير الســيارات التــي تزحــف أمــام شــبابيك أكشــاك بيــع الأطعمــة السريعــة، وروائــح العطــور الفرنســية تفــوح مــن بــين أثــداء امــرأة أربعينيــة وتهــرب عــبر النافــذة وتخلــق دوامــة لــركاب الطائــرات والســفن الفضائيــة والعمــال الهنــود الذيــن يحملــون العامــل مفــروم الكــف إلى المستشــفى. يلهــث الكلــب مــن فــوق بــرج شــاهق العلــو، وترفــرف ياقــة قميصــه بصفعــات الريــاح البــاردة. وينظــر الولــد للأســفل حيــث نقــاط ضــوء صغــيرة تتحــرك جيئــة وذهابــاً، وعطــر اللافنــدر يطــرد البعــوض، وينظــف أفخــاذ اليعاســيب الليليــة.

»لماذا مر الممشى من هنا؟».

ينظــر الكلــب إلى الولــد الصامــت الــذي يتأمــل الأفــق المظلــم.

»علينــا أن نعــبر هــذه الأبــراج حتــى نصــل إلى معســكرات ســيكاديا الأفريقيــة» حيــث تُلقــى القرابــين البشريــة هنــاك».

ويمـــوج الدخـــان في كل مـــكان والأصابـــع المزينـــة بالخواتـــم الفضيـــة تقـــص الســـجائر وتطـــوف بـــه في رحـــلات سريعـــة بـــين الفـــم والمنفضـــة. وتســـقط خـــارج المدينـــة، المدينـــة المزهـــرة بالقســـوة والاغـــتراب الأبـــدي. إنهـــا خيـــار الـــلا خيـــار. تـــصرخ الفتـــاة مغتبطـــة ضاحكـــة وتنحنـــي عـــلى صـــدر الشـــاب وتفـــرك لـــه شـــعر صـــدره وتقبلـــه كمـــا تفعـــل مـــع غـــيره. فينبثـــق مـــن بـــين الظلمـــة جلبـــاب مزركـــش الحـــواف بترميـــزات لاهوتيـــة، وينســـدل شـــعر أبيـــض عـــلى الكتفـــين تـــاركاً مســـاحة صلـــدة ولامعـــة في المنتصـــف لتجـــرب حظهـــا. يرفـــع الســـيد يـــده أمـــام وجهـــه ليصـــد ضربـــة ضـــوءٍ مـــا عـــن عينيـــه وتتراخـــى ذراع أنثويـــة ناعمـــة. يـــصرخ الكلب بخـــوف ويتســـمر الولـــد في انحناءتـــه «دعنا نغـــادر»، يفعـــلان ذلـــك بـــدون تـــردد. ولـــم يهـــدأ قلبهمـــا إلا حـــين لمحـــا مخروطيـــات الســـيكاديا مـــن بعيـــد. «مـــا المعنـــى مـــن كل شي؟»، «كل شي؟! كل شيء؟!»، وعصـــب الحيـــاة ينســـاب مـــن بـــين الجبـــال أبيضـــاً بخمـــر بلـــدي ودوران النـــرد حـــول نفســـه ضاحـــكاً.. إنـــه يلعـــب النـــرد لأنـــه هـــو النـــرد نفســـه. والعيـــون المغوليـــة المخططـــة كالمحـــار لا تهتـــم. لا تهتـــم أبـــداً

بصخب فقاعات الروك. بل بينابيع البحيرات المالحة وتجفيف السمك الدهني. بالطعم الحقيقي للأشياء.. وتتضخم كالورم لتبتلع الأيام بوحشية متعاظمة.

هناك أواليات كالجوع، تحالفات مرحلية تعطي أفضلية للحكايات الطويلة. ولذلك كانت الحصاة تمنح اتزاناً للصخور المترامية على بقاع الجدب. وهنا بالتحديد، يتخافت أثر المشى رغم كثرة الطراق ويستحم الأفق بلهب الشفق، فينعكس كل الكون على الحصاة الملساء وليس وجه الولد فقط، فحتى الكلب يرى ذاته فيها وتظل الكينونة مندسة وراء لسانه الجاف وخلف عيني الولد الميتتين. أرواح العظايا البالية تتبعثر في السماء بروائح الجمر والشَّعر المحترق ومشية النعام في البراري قرب الجواميس الوحشية. حيث يكون النوم أشد المهددات خطراً للجميع. وإذ ينكسر المشى يتنفسان الصعداء. وتنموا هياكل السمك والملح متراصة فوق بعضها لتشكل جداراً سرياً للذين كانوا هنا من قبل انحسار التنورة عن جسد الأرض العاري. ويضطجع السلام والحرمان في مضجع

واحـــد ليتقاســـما صمـــت الكآبـــة. لكـــن، كل هـــذا ليـــس بـــشيء، فالمهـــم هـــو الأُسرة، وينخـــس العجـــوز الخنزيـــر ويدخلـــه تحـــت جلبابـــه. «الفاميليـــا قبـــل كل شيء». العـــزوة، القـــوة، الكـــر والفـــر والهزيمـــة النكـــراء. الهزيمـــة المخجلـــة مـــن شـــدة قذارتهـــا ومـــرارة الفاجعـــة. حينئـــذٍ تختفـــي الحـــشرات لأنهـــا لا تريـــد أن تســـمع أكثـــر مـــن ذلـــك. فتنكـــسر الأقـــلام ويوضـــع الكتـــاب بـــلا أجـــل لبعـــث جديـــد. فليـــس إلا منـــزلاً للخـــوف، للـــضرب اليومـــي، للســـكر، والأم الخائنـــة. حيـــث تخفـــي الغابـــة كل البـــؤس متجملـــة بالوحشـــة وبموســـيقى البلـــوز وانحســـار الملـــح عـــن شـــواطئ البحـــر الرمليـــة في غـــروب يعـــوي بالريـــح والـــبرد. إن القبعـــات مؤقتـــة، والأقمصـــة المزركشـــة بالـــورود الملونـــة هـــي كذلـــك مؤقتـــة. ولكـــن القـــرار بالفـــرار محســـوم حتـــى لا يتحـــول إلى أغنيـــة شـــعبية كمنـــزل الشـــمس المشرقـــة. ومـــن النقطـــة الأولى، حيـــث ينطبـــع أثـــر القـــدم الصغـــير عـــلى مفـــرش الخـــلاص، ترتســـم ملامـــح قصـــة جديـــدة، مكـــررة ولكنهـــا أقـــل ملـــلاً مـــن عـــدم قـــول شيء. إنهـــا ليســـت حيـــاة بـــل مـــسرد حكائـــي. تُتوهـــم فيـــه كل الشـــخصيات كاســـتحضار أرواح الأســـلاف.

فالسـبابة يجـب أن تلمـس ذلـك الفـراغ وتسـافر الموجـات الدائريـة مبتعـدة عـن مركزهـا. ترتعـش وجنـات الولـد، ولكنـه لا يبكـي. كان ينظـر إلى عينيهـا عـبر النافـذة ورآهمـا تحثانـه عـلى الفـرار بصمـت. كانـت كجاموسـة بريـة تحـدق في صغيرها بـين فكـي المفترسـات. وحتـى في الجنـازة وقفـت بصمـت وخشـوع والآلات توقفـت عـن العمـل، والتـف العمـال حـول المقـبرة وهـم يبتسـمون. «إنـه لـم يكرهـك أبـداً حتـى قبـل وفاتـك وبعـد وفاتـك». ثـم يتهـاوى جسـدها النحيـف وتسـقط عينهـا الفولاذيـة مـن محجرهـا. ومعهـا تبـدأ الآلات الضخمـة في العمـل، تسـقط الأوتـاد الحديديـة عـلى بعضهـا وتقطـع الكتـل صفائـح الحديـد الأرق بأشـكال مختلفـة، وورود وتيجـان ملكيـة، وزخـارف عربيـة وكريـات يتـم تلوينهـا ببُهيـات الحديـد المخصوصـة. والحاسـب الآلي يرصد الأرقـام ويحولها إلى نقـود وصراعـات لا تُحتمـل ولكنهـا تُحتمـل في نهايـة الأمـر، يجـب أن تُحتمـل.

***

»أصبحـت ضعيفـاً» ثـم يسـتدرك الكلب»كنـتَ أقـوى حـين كنـتَ طفـلاً»، يحـدق الولـد في النبـع

ســاهماً »دخلتــك أمــراض الكِــبَر.. الحــب.. أولهــا وأخطرهــا.. الطمــوح.. والمعانــاة مــن الخيبــات المســتمرة.. وهكــذا تتعلــم الخــوف الــذي ســيوقف رحلتنــا في الممــشى». رفــع الولــد رأســه متحديــاً شــيئاً مــا «تعبــت». «ليــس أكثــر مــن لســاني» .. يلتفــت إليــه وينظــر إلى عينيــه بجفــاء «لســانك لا يفكــر».. يعــودان للنظــر إلى الأفــق »التفكــير .. مــرض إضــافي».. وينمــو حائــط المبكــى حــول القصــور، والجــدران العاليــة اللامعــة والبــاردة.. تختفــي المعطيــات القديمــة، وتتجــلى الذكــرى خلف ضــوء الشــموع.. ويربــت الســلام عــلى الأفئــدة في أدب التعفــن.. حيــث تبــلى اللغــة وتفقــد طبقيتهــا واحترازاتهــا.. ليــس نتاجــاً لمســاواة عابــرة بــل عــن وعــي أكــبر.. فهــم أكــبر يتلصــص المســاحات بــين أشــجار الغابــات كلمــا مــضى بهــا الوقــت. نقــار الخشــب يفقــد الســيطرة عــلى منقــاره ويســقط جريحــاً، تلتصــق العناكــب بشــباكها وتختنــق حتــى المــوت.. تبتلــع الاســماك المــاء وتنفــق مرتفعــة إلى الســطح، وكل مــا يتأنســن يخــسر. «هــل نواصــل المــشي؟». يلقــي الولــد بحجــر عــلى ســطح المــاء بغــير اكــتراث «لا أعــرف». «مــاذا لــو شــنقت

نفسي كما فعل العروسان؟».. ولم تكن هناك فائدة ترجى من فرد الفطائر بلفها بصباع واحد، ولا فائدة من قفزات البهلوانات، ولا كل الحركات الإغوائية التي تقوم بها المومسات.. لذلك تنهض من نومها وتحدق في السقف وفي جسدها العاري والبارد. وخلف المحيطات تنهض مومس أخرى، ثم ثالثة فرابعة فخامسة وهكذا بلا نهاية.. «إنه يوم الثورة.. ثورة المومسات» اعتصمن بغرض رفع الأتعاب والتحرر من سطوة الممشى التاريخي. ويتبول الكلب بصعوبة دون أن يرفع قدمه، إذ لم تعد من فائدة ترجى من رفعها. يحاول بعدها عدة مرات أن يقفز فوق الشجرة، وهناك في الأعلى يصيح «من مدير الإدارة إلى رئيس القطاع بصورة إلى المدير التنفيذي ورئيس مجلس الإدارة.. تحية طيبة، الموضوع:..». يصمت ويفكر في الموضوع. يضحك الولد، ويترك النبع ليلحق بالكلب فوق الغصن «خدر الصباح... وبعض النعاس ملازم لجفنيك.... هذا الشعور المفرط في النبل ... كيف يخسره العمال والموظفون وهم يهجرون ساعات ما بعد الاستيقاظ ... لماذا عليهم أن يعملوا؟»،

ينبح الكلب لأول مرة في الكون الجديد؛ ويستنفر عضلاته الواهنة. ينتبه الولد ويرى القرد.. «مزيد من التكاليف».. ثم يطير ويختفي بعيداً عن نظرهما. يصيح الكلب: «كلب».. فيتأمله الولد ويقهقه.. «أصبحت كوميدياً».. في هذا الكون الموازي، تنعكس الأشياء لكن انعكاسها لا يمكن الشعور به، فالأشياء تظل كما هي عليه، فانعكاسها ليس سوى وعي مجرد وليس انعكاساً فيزيائياً رغم أنه كذلك. فلعبة الاحتمالات تفضي إلى حركة دائرية داحل حدود الموجود بالقوة والفعل. والانبثاق لا يعني أي تحولات جوهرية لا حلولاً ولا تجسداً بل يسقط الثلج بغزارة في الربيع، وتجف الأزهار الحمراء كشفاه لم تتذوق طعم القبلات من قبل. يمكنك في الواقع أن تضع كل الأشياء في أماكن متبادلة ولن يحدث ذلك أي قلق لدى زبائن الكون. ويتحرك جفن الولد الأيسر «ستلتقي بحبيب قديم».. «إنني أفضل أن ألتقي بأعدائي عن الحبيب القديم».

ويمتد المشى بعيداً، يعلو ويهبط، ينعطف يميناً تارة ويساراً تارة أخرى أو يمضي متعرجاً أو

مستقيماً، مُعبَّداً في بعض الأحيان مطروقاً فقط في أحيان كثيرة، خالياً موحشاً في أغلب الأوقات، محزناً كذلك وقد تنكسر فيه بعض قطرات الندى. ومن على جانبيه كان صبية الضباب يوماً ما يرقصون، أما اليوم فإن هناك رؤوساً تنبت وتتبخر فجأة، رؤوس ضاحكة وباكية ومتقيئة ومشمئزة، بأعين أو بأنوف، أو بلا ملامح، أو مجرد أحرف للغة مجهولة، أشياء وأشياء، ألم وألم، حب، وخذلان، وتقارير سرية تُرفع ضد آخرين في المحال التجارية والجيران والمرافق الحكومية والوزارات، تعذيب وولادة، أشياء وأشياء وأشياء تتبأر في نقطة كثافة صغيرة عابرة إلى عمق كينونة الولد والكلب، تُغذي الشرايينَ والعروق، فيكبران بالهم. تخفت حِدة خطواتهما، يتكاسلان قليلاً ولسان الكلب تمزق حتى لم يبقَ منه إلا ثلثه. إن لم تكن سيداً فأنت عبد ولا خيار ثالث. إن لم تكن قوياً فأنت مُهان ومُذل لا محالة، ولا خيار ثالث، إن لم تملك إلا قلبك القوي فأنت مشاكس تافه كالقرد الذي يظل يتابعهما باستمرار في كل مكان. «لماذا لا تمشي معنا» وتجزع عيناه وهو

ينظـر للكلـب الـذي يشـير بإيمـاءة مـن رأسـه «ليـس لـدي مانـع» ، «سـتأكلني؟!». «لـن آكلـك.. أصبحـتُ عجـوزاً في الوقـت الـذي أصبحـت أنـت فيـه أكثـر قـوة وشـباباً». لكـن القـرد يقفـز مـن شـجرة إلى أخـرى ويختفـي بكل حـذر. كان مشـتاقاً للمـشي معهمـا بالفعـل. «يمكنـك أن تتخـذ قراراتـك بـكل عقلانيـة ولكـن النتائج سـتكون غـير عقلانية.. حينهـا تفقـد فرصـة المغامـرة». ويدخـلان إلى مقهـى للـكلاب عنـد انحـراف الممـشى إلى الغـرب أو ربمـا الـشرق، ويجـدان العديـد مـن الـكلاب بأسـيادها مـن البـشر يجلسـون عـلى المقاعـد قبالـة بعضهـم البعـض والطـاولات تتوسـطهم وفوقهـا طعـام للـكلاب «طعـام شـهي».. «بكـم الوجبـة؟» يجيبـه النـادل: مجانـاً.. لا شيء هنـا بالنقـود مـا عـدا تكاليـف حجـز الطاولـة والمقاعـد ودورة الميـاه والخطـوات مـن الطاولـة إلى أي مـكان آخـر داخـل المقهـى وكـسر الصمـت بالحديـث إلى بعضكمـا أو مـع النـادل، ورفـع اليديـن لتنـاول الطعـام، ومـد الخطـم داخـل الطبـق، وهنـاك تكاليـف بسـيطة لغسـل الصحـون الملوثـة بلعـاب الـكلاب والبـشر وتكاليـف أخـرى ولكـن في حالـة التقيـؤ عـلى الطبق

فقــط.. كل شيء مجانــاً.. وهــل هنــاك شيء في هــذا العالــم لــه ثمــن ســوى الحيــاة نفســها؟. وتتطايــر الأطبــاق وتخــوض المــرأة ذات العــين الفولاذيــة معركــة أخــيرة، وتنتــصر وتســقط، وتســقط جثــة الرجــل. تتــآكل الأحــلام القديمــة يومــاً بعــد يــوم، تصبــح اللغــة صعبــة، تثقــل الألســنة وتــصرخ القلــوب، وترحــل اليعاســيب إلى وديــان المــوت والنــار. وكتــاب مقلــوب، يُســقِط أحرفــه، عــلى اللهب العالــق في الحــصى. والنــار تظــل هــي النار، مقدســة دائمــاً لأنهــا رمــز للحيــاة والمــوت والدمــار والبنــاء وتدخــين الأرجيلــة، والقتــل المتسلســل. وكازينوهــات الكائنــات اللزجــة.

كل مــا يمكنــه أن يبكــي تــراه هنــاك في هــذا العبــث، وليكــن عبثــاً. عندهــا. وتحــت قديمهــا، وبــين فخذيهــا، وشــفتيها.. كل شيء محطــم يــزداد تحطمــاً، بمــا في ذلــك الســفن الحربيــة الخشــبية، وقلــوب المراهقــين، والطبــول، والمســارح، ومكــبرات الصــوت، والصواريــخ الفــرط صوتيــة، والأدمغــة البشريــة. «في هــذا الكــون لا توجد قرارات محســومة إنهــا مضطربــة ومشــكوك فيهــا دائمــاً، ولكنهــا محميــة بالتعنــت فقــط» ويرفــع العجــوز قدميــه

فتخـرج الخنازيـر وراء بعضهـا في طابـور طويـل، فيضحـك مقهقهـاً «هلمـوا فالممـشى ليـس ملـكاً لأحـد» ويـرى أسـنانه المتوهمـة تسـقط في حجـره، «عمـري طويـل» وينظـر بعينـين بارقتـين إلى نقطـة مجهولـة أمامـه حـين يسـمع غنـاء جـاكلي »هـذا العالـم مقسـم إلى عبيـد وأسـياد؛ وعـين الحكمـة أن تعـرف موقعـك مـن ذلـك.. هـل أنـت سـيد أم عبـد؟». «فلتذهبـي أنـتِ ومعكرونتـك العفنـة إلى الجحيـم». يجـب أن تحـذف مـن القصـص سـاعات النـوم والعمـل والدخـول إلى المرحـاض والخـروج منـه، هـذا وغـيره ممـا يمليـه تشـذيبها مـن العبـث وتبئيرهـا في زوايـا اسـتعباد النـص، والمـروق السـمج مـن وإلى لعنـة الحـزن. تلـك التجريبيـة التـي تجعـل كل مـن الولـد والكلـب لا يتضـورون جوعـاً للفنـاء، وصبيـة الضبـاب يسـتلقون في مقابـر الضـوء، وهـم يبعثـرون شـعورهم المضفـرة بأشـعة القمـر الزرقـاء. وتجعـل كل شيء يسـتلقي معهـم عـلى فوهـة التفاهـة، ودقـات الإيقاعـات النابضـة كل صبـاح بالأمـل والبـؤس والصحـو. لقـد نبتـت عـروق عـلى ذراع الولـد.. صـارت نافـرة ومتشـعبة. مـع ذلـك، يظـل الولـد ولـداً هنـا ولا

ينغمس مع الرسامين المنكوبين بجائحة التعبير على الأسطح. كانت قرية الفن النموذجية والتي أنشئت بعد الحرب تعبيراً عن القنوط من الأفكار والمفاهيم القديمة المُتعالية، كانت تلك القرية تقبع خلف التلال الخضراء، وكانت تحترق. فقد فشلت تجربة محاكاة عالم المثل بل أفضت لحرب أطول من المعتاد. «الإنسان هو الإنسان يا ولدي» فيحييانه ويغادران القرية بلا أمل في ارتداد الزمن إلى فلسفات الحياة المتفائلة. «إننا ننتحر ببطء» ويراقبهما بصمت فتلك اللقاءات المرحلية المؤقتة مهمة لإعادة تقييم موضع السيف من الندى.

نعم.. تثقل الخطوات يوماً بعد يوم حين يكتشفان أن العالم لا يحتمل الإنكشاف بقبح عُريه على الأدمغة المترهبنة، حتى أن الموت لا يضحى المعضلة الكبرى كما كان في السابق. ولذلك يظل الكلب يجر الثلث المتبقي من لسانه ولكن ليس كما كان في السابق، ويتوقف الولد عن قطف ثمار الجوافة كما كان في السابق، بل ينهار فجأة ليبكي كأرملة فوق جثة زوجها الجندي. مع ذلك فإن ساحة الحرب مليئة

بجثث أخرى وأرامل أخريات وربما في هذا فاجعة وعزاء في نفس الوقت، فالعبث ينزع – رويداً رويدا- إلى رسم أُطره المستقرة مقاوماً انعدام المعنى؛ وهكذا يُمنح الولد والكلب فرصة خلق ماهيتهما ولو في الأذهان فقط. نعم فقد كان صبية الضباب يرفعون أذرعهم ويوسعون ما بين أقدامهم ويُرعشون أكفهم ويقفزون على ذلك الوضع يمينا ويسارا، ثم يدورون حول أنفسهم وتصيح جدران الهواء «كرانكا.. كرانكا أوب زيلي.. كرانكا أوب زيلي».. وتضحك الفتاة الصقلية ذات الشعر الأحمر وهي تمسك بطنها لتحجز انسياب دمائها الزرقاء من ثقب السُّرة. وما يمكن أن يطلق عليه أيضَ الأحاسيس بلا تردد. كل ذلك انتهى الآن.. انتهى بلا عودة. وعلينا أن لا نفكر في النهايات أبداً.. علين أن نمضي في ذاكرة الممشى.. ممشى الولد والكلب؛ لنحصد ثمار الأفكار الشفافة.. أفكار الحب والكره والحياة والموت فينظر الولد إلى الأفق كما صار يفعل باستمرار.. كان يرى والده هناك في السماء ووالدته ذات العين الفولاذية مرتمية في أحضان الملائكة

الآخريــن وعيناهــا ترجــو منــه الرحيــل. وفي تلــك اللحظــة تحديــداً ينمــو لســان الكلــب مــن جديــد.. فيواصــلان المــشي.

(تمت)

ممشى الولد والكلب

مسرد حكائي

هناك صيف في كل مكان، داخل الأحذية وبين أسنان المشط، وتحت الإبطين، وفي غمامة الذاكرة، وله رائحة نمل محترق. ليس النمل المجنح فقط، بل حتى النمل الذي يتعشى تحت الجلد. أو ذلك المتخفي داخل الأرواح المتململة. ويحاول الكلب طرده من لسانه الطويل، وهو يعود إلى الخلف، لكي لا يتبع سيده الصغير. والسيد الصغير لم يعرف بعد معاني الارتباط بين الموت والقُبلة. لذلك فالمسير طويل، إذ يطلق الجندي الأسير النار على القائد، في وسط جبهته تماماً، غير أن القائد لا يموت، بل يعض قضيب الأسير حتى يقطعه فيموت كلاهما ببطء كدوران المجرات. يصبح الكون فارغاً منهما، ومن العروسين، ومن اليعاسيب المراهقة، وثمرة الجوافة ذات الديدان، والحب والفرح، وتغمره كآبة سيارة عطبت بسائقها وسط الطريق الخلوي، لتظلل ما تحت الرمل من عظايات عطشى شاحبة. إنه روتين الحياة الباهظ، والسخيف أكثر من رجل يتسول قلب امرأة.

»ليس كل العالم روكو«

ويبدأ الكلب في التحول لبشري. غير أن الولد لا يدرك ذلك.

ويحاول الكلب التخلص من بشرية داهمت كينونته على حين غرة.

»بل كل العالم روكو«

ولكن هيهات.

ففي وادي البكاء، تنشق الأرض عن أخدود الحقد من حروف اللغة، وتلك ميزة بشرية مُحتكرة.

أمين الكردفاني

ISBN 1-8616486-9-3

2024